٦٦

ذخائر العرب

٨

284.07
I014hY=A

# حيّ بن يقظان

## لابن سينا وابن طفيل والسهروردي

تحقيق وتعليق

أحمد أمين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مكتبة
لسان العرب
زايد بديل
lisanarb.com
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

طلب إليّ أن أعمل بحثاً يلقى فى مهرجان ابن سينا بمناسبة عيده الألفى ففكرت فى موضوع أبحثه فوقع اختيارى على موضوع « ابن سينا بين الفلسفة والتصوف » ثم رأيت الموضوع صعباً يضطرنى أن أقرأ فى دقة كل ما كتبه ابن سينا فى الفلسفة والتصوف وأفهمه فهماً جيداً حتى أعرف موقفه منهما . وهذا مطلب عسير . ولذلك عدلت عنه فلجأت إلى موضوع آخر يسهل عليّ بحثه مع ضعف قوتى .

فاخترت أن أقارن بين حى بن يقظان عند ابن سينا وحى بن يقظان عند ابن طفيل لأنه أنسب لى فلما علم بذلك الأستاذ الخضيرى قال : « إن عنده حى بن يقظان ثالثاً للسهروردى المقتول ووعدنى بإعارتها لى و بعث بها إليّ مشكوراً فأخذت أقرأ حى بن يقظان عند هؤلاء الثلاثة العظام وأنا أعلم أن حى بن يقظان لابن سينا قد طبعها الأستاذ ميكائيل بن يحيى المهرني فى مدينة ليدن سنة ١٨٨٩ ووضع عليه شرحاً لطيفاً اقتبسنا منه كثيراً .

وقد نفدت نسخها لأنها كانت قليلة العدد . ثم طبعت فى مصر مع جملة رسائل طبعها الأستاذ محيى الدين الكردى رحمه الله . وقد نفدت أيضاً ، ثم إن حى بن يقظان لابن طفيل قد طبعت فى مصر مراراً ثم طبعت فى دمشق طبعة أنيقة فى سنة ١٩٣٥، وكادت تنفد أيضاً . أما حى بن يقظان للسهروردى فهى نسخة خطية لم تطبع من قبل وأصلها فى مدريد من مخطوطات الإسكوريال وقد كتبت فى الفهرس على أنها لابن سينا خطأ . ثم تدارك الخطأ بعض المستشرقين الأفاضل . وقد رأينا قلة النسخ المطبوعة من هذه الرسائل وعدم طبع بعضها أن نطبعها كلها عقب الفراغ من بحثنا فيها . وتفضلت دار المعارف مشكورة بطبعها جميعها مع هذا البحث وتوزيعها

على أعضاء المهرجان فى بغداد وطهران وقد لقيت عناء سيلمسه القارئ فى فهم مرامى ابن سينا فى رسالته والسهروردى فى رسالته لأنهما عبارة عن رموز غامضة صعبة التناول فبذلت جهداً فى فهمها وأثبتهما فى الآخر لعل بعض القراء يرى فيهما غير ما لم أر .

* * *

أما ابن سينا فهو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ويلقب بالرئيس أى رئيس الفلاسفة . وقد ولد فى بلخ من أعمال التركستان . ولذلك يتنازعه الأتراك والفرس . قد أقام له الأتراك مهرجاناً منذ أعوام فى استمبول فأراد الفرس أن يقيموا له أيضاً مهرجاناً فى طهران ، تعصباً منهم لفارسيته .

وإذ كانت ثقافته عربية إسلامية دخل المسلمون العرب خصماً ثالثاً فادعوا عربيته وسيقيمون له مهرجاناً عربياً فى بغداد فى العام القادم . والعلم وخصوصاً الفلسفة لا يعترف بمكان ولا بدم .

على كل حال انتقل إلى بخارى وكان أبوه يتولى العمل فى قرية من قرى بخارى . وتنقل ابن سينا بعد ذلك فى البلاد واشتغل بالعلوم وتفقه أولا بالعلوم الدينية ثم بحساب الهند والجبر والمقابلة وتعلم المنطق وبرز فيه واشتغل بعده مدة فى العلوم الطبيعية والإلهية . واجتهد فى حل المشكلات لنفسه .

ومما حكى عنه أنه كان ينام وهو مشغول ببعض المسائل الصعبة فيحلها فى حلمه . ثم تمهر فى علم الطب وذاع صيته . ودعى للأمير نوح بن نصر السامانى فأبرأه من مرض كان عنده فذاعت شهرته

وله فى الطب كتاب القانون الذى كان عمدة لأطباء أوربا فى القرون الوسطى . وفى أثناء مرض الأمير هذا زار مكتبة له حافلة وقرأ ما فيها من الكتب القيمة ثم احترقت واتهم بإحراقها حتى يستأثر بما فيها من علوم . وقد توفى أبوه وهو فى الثانية والعشرين بعد أن حصل كثيراً من العلوم ومهر فيها .

وقد استوزره الأمير شمس الدولة وانغمس فى السياسة واكتوى بنارها فلما مات الأمير وحل محله تاج الدولة لم يستوزره . ومما اكتوى به فى السياسة أن الجند شغبت

عليه لأمر من الأمور وكادت تقتله ولكنه نجا منهم .

وكان قوى المزاج مفرطاً فى الشهوات لم تقنعه فلسفته مع أنه من المنسوب إليه قوله :

اجعل غذاءك كل يوم مرة  واحذر طعاماً قبل هضم طعام

ولكنه يظهر أنه لم يعمل بما يقول ككثير من الناس ، ومن إفراطه فيها أنه أصيب بالمرض الذى يقال له « القولنج » فعالجوه علاجاً خطأ فمات به . ومن كتبه المشهورة كتاب الشفاء والنجاة ورسائل كثيرة فى التصوف والإلهيات ، ومنها رسالته حى ابن يقظان التى سننشرها . ومما ينسب إليه فى عجز الإنسان عن إدراك الحقائق قوله :

لقد طفت فى تلك المعاهد كلها  وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر  على ذقن أو قارعاً سن نادم

---

وعلى كل حال يعد ابن سينا من أكبر فلاسفة المسلمين وأبعدهم أثراً ، رحمه الله .

* * *

وأما ابن طفيل فأندلسى الأصل أطلق عليه الفلاسفة النصارى فى القرون الوسطى بعد أن اشتهر عندهم أبا باسر تحريفاً عن أبى بكر وكان معاصراً للفيلسوف المشهور ابن رشد وإن كان ابن رشد أكبر منه سناً ، وقد اشتهر أول أمره بالطب فى غرناطة وكان الطب فى الغالب المدخل للفلسفة إذ كان أحد علومها ثم أدرك دولة الموحدين وأصبح كاتب عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين على سبتة وطنجة وقد كان ذا تأثير كبير على السلطان أبى يعقوب يوسف الموحدى وكان من طبيعة هذا السلطان تشجيع المتفلسفين . وقد حل ابن طفيل طبيباً للسلطان لما طعن ابن رشد فى السن ولا نعرف له من الكتب إلا رسالة حى بن يقظان هذه . ويؤثر عنه أيضاً بعض استكشافات فى علم الفلك .

ومات ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ ١١٨٦ م وحضر السلطان بنفسه جنازته وقد نقلت قصة ابن طفيل إلى لغات أخرى كثيرة وكان قد قرأها مترجمة الفيلسوف الكبير ليبنتز وأعجب بها .

* * *

وأما السهروردى فهو شهاب الدين يحيى بن حبش عرف بالمقتول تمييزاً له عن آخرين لقبوا بهذا اللقب وربما لقب بهذا اللقب إيماء بأنه قتل استحقاقاً لهذا القتل وإلا كان لقب بالشهيد . وكان متفلسفاً صوفياً درس الفقه فى مراغة ثم انتقل إلى اصبهان ثم إلى بغداد ثم إلى حلب . وأشاع فى حلب تعاليمه الفلسفية وحماه الملك الظاهر ابن صلاح الدين الذى كان يحكم حلب . ولكن إيمانه فى الفلسفة ورأيه فى الحلول وأن العالم والله شىء واحد وتصريحه بذلك ألب الفقهاء والشعب عليه فاضطر الملك الظاهر أن يتخلى عن حمايته فقتل سنة ٥٧٨ . وهو فى نحو السادسة والثلاثين من عمره كما قتل قبله الحلاج القائل بهذه الفكرة ، لتألب الفقهاء عليه أيضاً . والظاهر أن صلاح الدين أمر بقتله تهدئة للفتنة التى كانت قائمة إذ ذاك كما فعل الخليفة العباسى فى شأن الحلاج وربما كان هناك سبب آخر وهو أن التصوف على هذا النحو يبعد الناس عن العمل ويضطرهم للتفرغ للعبادة فلو مشى الناس كلهم على هذا المبدأ لخربت الدنيا وتخلى الناس عن العمل .

وقد كان السهروردى يتبع مذهب المشائين والرواقيين من اليونانيين وبعض تعاليم انتست فيها من مذهب الأفلاطونية القديمة وكان أيضاً شارحاً لمذهب أرسطو كابن سينا وابن رشد . وقد ألف كتاباً عظيماً فى الفلسفة اسمه ( حكمة الإشراق ) يهاجم فيه أحياناً مذهب أرسطو كما يهاجم فيه الفلسفة المادية مقلداً فى ذلك الرواقيين ومتبعاً الحكمة المشهورة « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » . وأسلوبه أسلوب غامض حتى هو أغمض من أسلوب المتصوفة والفلاسفة المسلمين الآخرين وهو يفسر فى كتابه هذا الضرورة والاختيار والموجود والمعدوم والهيولى والصورة ، والسبب والنتيجة والفكر والحس ، والجسم والروح إلى غير ذلك . ويرى فيه أن الحياة والبواعث ليست إلا موضوعاً منبعثاً من الله . وهو زعيم لفرقة الإشراقيين .

# ابن طفيل[1]

**ولد قبل سنة ٥٠٦ هـ. / ١١١٠ م، وتوفى سنة ٥٨١ هـ. ١١٨٥ م. وأصله**

---

(١) جاء فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ما يلى :

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى :

انظر : روض القرطاس (طبعة تورنبرج ص ١٣٥ – عبد الواحد المراكشى ، المعجب (دوزى) ص ١٧٢ – ١٧٥ – « أقوال كتاب العرب فى بنى عباد » ج ٣ ص ١٧٩ – يونس بوجيس ، رقم ٢٠٣

وراجع عنه : (أطباء العرب) Wustenfeld, Aerzte, p. 194

(تاريخ) Grab, p. 273

(كتاب تاريخ الطب عند المسلمين) Leclerc, II, p. 113

Munk, Melanges p. 410 sqq.

كتبه : ١) أسرار الحكمة المشرقية ، اسكوريال ٦٦٩ – ٣ ، طبع فى بولاق سنة ١٨٨٢ م .

٢) رسالة حى بن يقظان

ترجمها إلى اللاتينية بوكوك : E. Pococke, Philosophus autodidactus (Oxoan (أكسفورد) 1761)

وقد ترجمت الرسالة إلى لغات حية كثيرة أكثر من مرة ، منها الإسبانية :

F. Pons Boigues, El filosofo autoeducado de Abentofail. Novela psicologica ... prologo de M. Menéndez y Pelyo (Zaragoza, 1900)

وفى الإنجليزية : Simon Ockley : The improvement of the human reason, exhibited in the life of H.B.Y. written in Arabic by I.T. Reprinted by E.V. Dyck, Cairo, 1905).

وترجمة أخرى نشرها بروفل P. Brunle سنة ١٩٠٤ بعنوان Wisdom of the East

فى سلسلة The Awakening of the Soul وترجمها إلى الألمانية J.K. Eichhorn إيخهورن ونشرها سنة ١٧٨٢ ، (حياه أبا جعفر بن طفيل) A.S. Fulton سنة ١٩٠٧ ، وترجمت إلى الروسية ١٩٢٠ . وأعاد ترجمتها جنداله بالتشيا ونشرها بنفس الاسم الذى نشرها به يونس بوجيس عام ١٩٣٦ .

بروكلمان ، تاريخ ج ١ ص ٤٦٠ – ملحق ، ج ١ ص ٨٣١ وانظر :

E. Garcia Gomez, Un cuento arabe fuente comun de Abentofail y de Gracian, Revista de Arch. Madrid, 1926.

وراجع ترجمة ليون جوتيه لرسالة حى ، وهى أوفى وأدق ما بين أيدينا من ترجماتها إلى اللغات الأوربية ، ومقدمته عن أبى بكر بن طفيل أوفى ما لدينا عنه ، انظر :

Leon Gauthier, Hayy ben Yaqdhân, Roman philosophique d'Ibn Thofail (2e éd. Beyrouth, 1936).

وقد أثبت فى ص « من مقدمة الترجمة أن رسالة الحكمة المشرقية الموجودة بالأسكوريال ( مخطوط ٦٦٩ ) ليست إلا جزءاً من رسالة حى ، ومن المعروف أن الاسم الكامل لهذه الرسالة هو : « رسالة حى بن يقظان فى أسرار الحكمة المشرقية ، استخلصها من درر جواهر ألفاظ الرئيس أبى على بن سينا الإمام الفيلسوف الكامل العارف أبو جعفر بن طفيل »

من وادى آش . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان تلميذاً لابن رشد ، ولكنه هو نفسه لا يذكر ذلك . كان طبيباً فى غرناطة ، وعمل كاتباً لعامل هذا البلد ولأحد أبناء عبد المؤمن ، وعلا أمره حتى أصبح طبيباً لأبى يعقوب يوسف المنصور خليفة الموحدين ( ١١٦٣ — ١١٨٤ م . ) وكانت له حظوة عظيمة عنده ، وهو الذى قدم إليه ابن رشد فى ظروف معروفة ، ونصح هذا الفيلسوف القرطبى بأن يدون شروحه لكتب أرسطو . ثم تخلى ابن طفيل عن عمله كطبيب للمنصور وتركه لابن رشد ، وتوفى فى مراكش سنة ١١٨٥ — ١١٨٦ م .

ومن المعروف أن ابن طفيل صنف فى الطب كتبا ، وأنه كانت له آراء مبتكرة فى الفلك ، وقد ذكر البطروجى أنه أخذ قوله فى الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية من ابن طفيل .

ولم يبق لنا من مؤلفات ابن طفيل إلا رسالة « حى بن يقظان » أو « أسرار الفلسفة الإشراقية » وقد ترجمه بوكوك Pockocke إلى اللاتينية بعنوان « الفيلسوف المعلم نفسه Philosophus autodacticus » ونشره فى سنة ١٦٧١ ، وترجمه إلى الأسبانية بونس بويجيس فى سنة ١٩١٠ ، وإلى الفرنسية ليون جوتييه فى نفس العام . وتبدأ الرسالة بموجز مفيد هام لتاريخ الفلسفة فى الإسلام يمتدح فيها ممن تقدمه ابن سينا وابن باجة والغزالى .

وإليك موجز هذه القصة كما أوردها غرسية غومس :

فى جزيرة مهجورة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء ، وفى وسط ظروف طبيعية طيبة ، تولد طفل من بطن أرض تلك الجزيرة تحمرت فيه طينة على مر السنين دون أن يكون له أم أو أب . وفى قول آخر أن تيار البحر حمله إلى هذه الجزيرة فى « تابوت أحكمت زمه [ أمه ] بعد أن أرونه من الرضاع ، وكانت أميرة مضطهدة فى جزيرة مجاورة ، فاستودعت ابنها الأمواج حتى تنجيه من الموت . وهذا الطفل هو حى بن يقظان . فنبتته غزالة وأرضعته وصارت له كأمه . ونما حى

وأخذ يلاحظ ويتأمل [١] وكان الله قد وهبه ذكاء وفاداً فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه ، بل استطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير إلى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها . وقد وصل إلى ذلك بطريقة الفلاسفة ، بطبيعة الحال . وأدت به هذه الطريقة إلى أن يحاول عن سبيل الإشراق الفلسفى الوصول إلى الاتحاد الوثيق بالله ، وهذا الاتحاد هو العلم الغزير والسعادة العليا المتصلة الخالدة فى وقت واحد . ولكى يصل « حى » إلى ذلك دخل مغارة وصام أربعين يوماً متوالية ، مجتهداً فى أن ينفصل عقله عن العالم الخارجى وعن جسده بواسطة التأمل المطلق فى الله لكى يصل إلى الاتصال به ، حتى أدرك ما أراد . وعند ما بلغ ذلك المبلغ لقى رجلاً تقياً يسمى « أبسال » أقبل من جزيرة مجاورة إلى هذه الجزيرة يحسبها خلاء من الناس . واقام أبسال بتعليم الكلام لصاحبه المنفرد بنفسه والذى لقيه دون أن يتوقع ذلك . ولم يلبث أن وجد فى الطريق الفلسفى الذى ابتكره حى نفسه تعليلاً علوياً للدين الذى كان يعتقده ، وتفسيراً كذلك لكل الأديان المنزلة . ثم أخذ « أبسال » صاحبه إلى الجزيرة المجاورة ، وكان يحكمها ملك تقى يسمى سلامان [ « وهو صاحب أبسال الذى كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة » ] ، وطلب إليه أن يكشف ( لأهل الجزيرة ) عن الحقائق العليا التى وصل إليها ، فلم يوفق ؛ ووجد عالمانا تقسيمها مضطرين آخر الأمر إلى أن يعترفا بأن الحقيقة الخالصة لم تخلق للعوام ، إذ أنهم مكبلون بأغلال الحواس ، وعرفا أن الإنسان إذا أراد أن يصل إلى التأثير فى أفهامهم الغليظة ، ويؤثر فى إراداتهم المستعصية ، فلا مفر له من أن يصوغ آراءه فى قوالب الأديان المنزلة . وكانت نتيجة هذا أن قررا اعتزال هؤلاء الناس المساكين إلى الأبد ونصحهم بالاستمساك بأديان آبائهم . وعاد حى وصاحبه إلى الجزيرة المهجورة ليتمتعا بهذه الحياة الرفيعة الإلهية الخالصة التى لا يدركها إلا القلائل من الناس » .

---

(١) راجع وصف ابن طفيل المبدع لاستيقاظ روح الملاحظة والإدراك الفطرى عند حى . « حى بن يقظان » ، ص ٣٤ — ٣٦ .

والأساس الفلسفى لهذه القصة هو الطريق الذى كان عليه فلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة . وقد صور ابن طفيل الإنسان الذى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان ( واليقظان هو الله ) وقد رمى ابن طفيل من وراثها إلى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة ، وهو موضوع شغل أذهان مفكرى المسلمين كثيراً .

أما القالب القصصى الذى اتخذه ابن طفيل سبيلاً لعرض آرائه الفلسفية ، فقد درسه الأستاذ غرسية غومس دراسة علمية عميقة شاملة ، ذهب فيها إلى أن هذا الهيكل العام للقصة مأخوذ من « قصة الصنم والملك وابنته » ، وهى إحدى الأساطير التى نسجت حول شخصية الإسكندر الأكبر ، ولا بد أنها كانت معروفة عند أهل الأندلس فتناولها ابن طفيل وصاغها فى قالب رمزى . وفى هذا يقول غرسية غومس : « وقد وجد ابن طفيل فى هذه الفكرة الأدبية ذات الحيوية المتصلة والتى تبدو حقيقية وإن كانت من نسج الخيال ، السبيلَ إلى عرض نظرية المفكر المتوحد و نظريات فلسفية أخرى . هذا وقد وردت فكرة الفيلسوف المتوحد فى كتابات ابن سينا وابن باجة ، وقد وجد ابن طفيل فيها كذلك وسيلة تتفق مع تفكيره اتفاقاً بديعاً ، بل ضمت هذه الحكاية نقطة ظاهرة استطاع ابن طفيل أن يفرغ فيها أفكاره ، ومن هنا نتج هذا التأليف الجميل بين قصة شائعة و بين الأفكار الفلسفية ، واستطاع ابن طفيل بأسلوبه العذب الذى يفيض ابتكاراً ومنطقاً وقوة شاعرية أن يخلق منها أثراً من أعظم ما أطلعته العصور الوسطى » .

وأطرف من هذا أن حكاية الصنم نفسها هى التى أوحت إلى « جِبْرَانْ » فكرة كتابه المسمى « كْرِيتِيكُون : الناقد » . وقد استطاع كل من الأب Pons ومِنْدِدْ بيلايو من بعده أن يظهرا العلاقة الواضحة بين شخصية أندريتو التى ترد فى قصة ذلك اليسوعى الأرغونى ( أى جراسيان ) و بين شخصية حى بن يقظان التى ابتكرها الفيلسوف المسلم . ولا نعرف كيف اطلع جراسيان على رسالة ابن طفيل التى لم تنشر فى لغة أوروبية إلا سنة ١٦٧١ م . وقد أثبت غرسية غومس أن كتاب الكريتيكون قد

أقرب إلى « قصة الصبي » منه إلى « سيرة حي بن يقظان » وأدت به مقارنة بين الكتابين إلى القول بأن غاية هذه الشبه هي أن جراسيان قد هذه الأسطورة التي كانت متواترة بين العرب يسكنين الأرجوحين من غير شك . ومن أدلة ذلك أن مخطوط الأسكوريال الذي يضم هذه القصة مكتوب بحروف لا بيئية وعربية ترجع إلى القرن السادس عشر [1] .

وقد ذاعت قصة حي بن يقظان بين مسلمين ويهود عصرها ، وترجمها موسى الأرخوي إلى العبرية في سنة ١٣٤١ م وعلق عليها وقد نقل ترجمة بوكوك اللاتينية إلى الإنجليزية جورج كيث لكي يقرأها الكويكرز بين ما يقرؤونه من كتب التقى والورع وامتدحها الفيلسوف سبنسر ، وعنهم استمد ديلافو أندع وأعرب ثمرات الأدب العربي


Leon Gauthier Hayy Ben Yaq

Cervantes Saavedra El Criticon Saragossa

Migne

# حي بن يقظان

وتشبه قصة حي بن يقظان في جوهرها كتاباً يحمل اسمه « إيثيوبريس » « حافظ السر » منسوباً إلى هرمُلُس ، وهو محاورة امتزج فيها المذهب الأفلاطوني بمذاهب قدماء المصريين . وقد عرض هذا الكتاب وأشار إليه القفطي في تاريخ الحكماء.

وخلاصة حي بن يقظان أن سبعة أخوة عاشوا معاً في جزيرة ، إذ عثر أحدهم على طفل جميل الطلعة حسن الهيئة ، مهيب قد أكمله السنون والرحلات تجربة عصيبة . وهذا الشيخ المهيب اسمه حي بن يقظان وهو رمز لهذا الشيخ الباحث وقد أكسب التجارب من السنين ومن الرحلات

وهذا الرفقة ليست شخصاً ، وإنما هي الشهوات والغرائز والغضب وسائر ملكات الإنسانية ، والمحادثة بين الرفقة والتحدث إلى حي بن يقظان هو عبارة عن المجادلات التي تحدث عادة بين غرائز الإنسان وشهواته وطموحه وعقله . ومن هذا القبيل ما كتبته في مجلة الرسالة حول مناظرات حدثت بين قوى الإنسان لطيفه وعقله إذ قلت :

« همست هذه الأيام بمحل حضير ثم الوقت نفسي بأن أقضيه قبل فيه ريثما أتحول كأدق أوابد المرتفعات وأعلاها ، فقد كنت بحاجة راحة أولاً ، وقامت تخطب وتبدي حججها في فصاحة وبلاغة . وبكل صمت رجعت ، وطال بي الحديث عن شتى ، اعتماداً على قوتها وعضلاتها ، ثم جلست في زهو وإعجاب . فوقف ضميري يعارضني ، وبدى عدم ارتياحه لطلبي ، معتمداً على ما تحدث عن هذه الرحلة من آلام ، ثم وقف العقل ، وقد وجدته أخيراً تركوه لأعمل فيشكلوني بمصلحتها ، ويدافع عن اتجاهها . ثم لاحظت أن خوف بدأ يحذراً عن تأييد صفتها ، فصار يسخر

عنها محوفاً النفس والبدن من سلطانه ورأت بعد ذلك الخيال يحلق في الجو ، فيصور التاجر للعمل الذي تريده الزعامة تاجر حمية أحياناً ، وقسحة أحياناً أخرى . وهو بهذا العمل شجع ومحدل وأحياناً سيطر خب على الموقف فيؤيد الزعامة تأييداً جامحاً ، ثم بعد ذلك لا يسمع لعقل ولا خوف وأحياناً لا يكون للخب موقف في الأمر وكل يكون السيطرة للإباء والأنفة ، فتعدل النفس عن تأييد الزعامة ثم رأيت أن هذا الخيال مرة يثور فيطيح بكل العوامل الأخرى وبعد الرسامة مهما كان التاجر وأحياناً يكون رزيناً هادئاً يصغي إلى كل الأصوات يصغي تماماً ، ويحكم بعد ذلك للأسبق . وهو ترس التاجر . هادئ أحياناً ، متكلم فيه لتكلموا بتؤدة وهدوء أحياناً ، وخروج عن هدوئه أحياناً وأيا ما كان فهو ترس بكل معنى الكلمة . فهو صورة صادقة لتجار خارجي من مؤمرات ودسائس ولاعيب ، وخداع ، وكل ما يحدث في الخارج .

ومن الصعب أن نخرج هذا الترس قديم . كان في عهد آدم وما بعده ناس في تقليده إلا من عهد قريب ، وحتى إلى الآن لم نستطع إعطاءه ، وغاب عنهم بعض معانيه » .

هذه المعركة بين قوى الإنسان وعقله ذات بين سؤال العقل عن علم الفراسة ، والقصد من هذا العلم هو معرفة عن طريق وسيلة علم الفراسة لأنه بواسطته يعرف الأمر المجهول الخفي من أموره الظاهرة ويعرف التاجر أموراً كثيرة من مقدمات بديهية وعلم الفراسة شأنه هذا لأنه يدلان على خفايا من عيوب ومظاهر .

ويقول العقل إن هذه الرقعة التي تصحب الإنسان وهي مسكنه وشهواته رفقة سوء ومن ذلك أيضاً قوة الحس وما يتبعها من الاستعداد لها وذلك لأنها قادرة على تهيئة الشيء وتوفيره وتهيئاً لإيقاع الإنسان في الشر . وهذا تشبيه زور وباطل لا ينشأ عن عقل وحكمة .

وكيف ما عبر عنه بقوله ( إن هذا يدعى عن تشبث الفوج ، ويدعى عن بصراك

قدر شعره قرم شق لا يتلأ نطه إلا العراب ، وهو يرمز بالذى عن يمينه للقوة الغضبية .
ويمثلها عن اليمين ، لأنها قوة أقوى من القوى الأخرى كالقوة الشهوانية ، ومن
بالتى عن اليسار للقوة الشهوانية . ووصفها بما وصفت عليه من قدارة وقوة وشق
ثم قال ( إن هذه القوة متعلقة بالإنسان التصاقا كبيراً ولا يتهيأ الإنسان منها
إلا غربة تأخذها إلى بلاد لم يعرفها من قبل أمثاله ) ويرمز بذلك إلى أنه لا مندوحة
منها إلا بمفارقة البدن بالموت . وعلى هذا ذلك ( وإنك إن تفحصتها رأيتها وسهل
لم قيادك بل استظهر عليها بحسن الأدبة وتعهد سوء الأدب . فإنك إن تركتها
لم تجربهم وما تجروك وركبتهم ما يركبونك ) . يعنى بذلك تسليم قيادها لحكم
العقل . قال ( إن العقل — وهو حى من فضل — ما وصف الرقيب بهذه الأوصاف
فحص هذه القوى كما وصف العقل فوحدها كما وصفها ، ثم بين ما صححه العقل
هذه المصالح حتى منه الإنسان بذلك على سبيل حيلة فقال له ( إن هذا السبيل
ممدود لن يستطيعه ) أى أن هذه الصحبة بذلك الوجه لا يمكن التخلى عنها
إلا بموت فهى ملابسة له ما بقيت روح فى البدن . وإن هذه التركيب لا يمكن أن
يخضع لحكم العقل خضوعاً تاماً ما دامت حادة عنه لغريزته يمكن بمجاهدة تقمعها
وتحسن عليها لا من ذلك . ثم قال حى بن يقظان دالا به على حسب الصحبة ( إن
الحدود الأصلية للإنسان حدان يجوه الحقيقى — وقد أدركتهما وتمسكت بهما لاختيار
الحية متوفرة وحدان من الحدود الخلقية وحدان عشران ، ولكل واحد منهما
صنع قد ضربت بينهما وبين غاية الشر سوراً من بعيد لا حوس حديد محكوم الوقود
مشحم بالقطران ) والمقصد بهذه الحدود المركبة المحدودة فى على الأرض
والسماء وهى التى جمعها الحقيقى أو أحد الغريب الحد المشترك فيما بين الحد
الغير الحسى الهيولى والصورة ، والحد الذى بين الهيولى والصورة ، ولكل
من الهيولى والصورة كثيه وحقيقة وقد ضرب بين جسميهما وبين غاية الشر سور
لا يستطيع أن يتخطاه بقدرة ولا بحيلة ، إذ يتخطاه بحد وتعمل لا يكتسب ثم قال

« إن تحطى هذا السور لا شيء للشر ، مطرة وإنه تى بالاعتدال فى عين فوارة إذا هدى وبها السائح فتطهر بها ، وشرب من فوارتها » .

« يعنى يمد العين ... ثم يحكم العمل ويديه إلى الصواب ثم قال « وهذه العين تمد نهراً على الخروج من عمل منهج حتى على ... فلا يعرق ... يستطيع أن يرتفع إلى الشواهق من غير أن تتعب حتى يتخلص إلى أحد الحدين ) وقوله : ( على الترتيب ) أى غير ممدود للعمل مستعد لعمله ... وهى ممدة لأقل تسبب استعدادها من الخمس فى الأوليات والبديهيات وقوله ( حتى على ... حتى لا يرقى ) أى بلغ درجة فى غير منطق حتى يطلع على الحقائق من غير تعب ولا تعب ... ثم قال ( وتمد هذه العين من إقليم ... وتتعدى سعته ولا يمكنه إلا ... يطوفون فيه والعناية تمسكه على أتمه وإنه عين ... من بقعة من بقاع ... )

ويشير بهذا إلى الصوت ... فصوت الشمس فيه مصير الصوت فيها وما شبهها إياها ... وقوله ( وتمد العين تمد سعته ولا يمكنه إلا ... ) يريد به أن هيولى هذه الكائنات لا تستعد بها لصور ولا تمتد فيها كما لا تمتد الذات فى الأجسام تمتد ولا تستطيع أن تدخل هذه الإقليم لأنه منقوص عمرت عمومها ، تمسكه تخصص تحدث من حيث هى آخر ... حقائق ... الشمس تمسكه ... ثم قال ( وبين هذا الإقليم وإقليمكم قوم ... الذى منهم فيه به فى أمور منها ... تضعف عن العمل لأمن عرباء ، ويسعى لأمور من شعب عالية ، وأنه مرسى قواعد السموات ومرسى قواعد الأرض ومستقرها ... ) وهو يشير بالأوسط إلى تمسكه تحديه وتحديه ، وبإقليمكم إلى الذى لا يسكن ، ويشير بالأخرى إلى الأفلاك التسعة التى ... فلك القمر وتحت فلك ... تمسكه ... التى كان تصعد من هذه أفلاكاً تسعة تتسلط على الأرض ... تحوم ... تسيح فيه ... من الأرض وأرقى منه ، وأن ... هذه الأفلاك علة من وهى لله ... وسموات هذه الأفلاك التسعة ... لأولى ( تحوى تحته ) — فقوله ( إن فلك القمر هو مستقر هذه السموات )

ونقول فى الأقاليم الأخرى ( ... ) لكل أمة صفحة محدوداً لا تظهر عليهم غيرهم . وأن كل فلك مسكون بسكان مناسبون طبيعة (قيمومه) ... أن يختم هذه الأقاليم بعمارة العاشرة ( عمارة العالم ) .

ثم عاد إلى عالم الأرض وسكانه وقال (إنه ... على سكنت خمس كتلك تزيد ... تختلف من يسكن الأرض ) ... سكنت خمسة إلى أحوال خمس ... باختلافها إلى ... الإنسان في حياته من ... وهكذا ... في ... القوة المتخيلة والقوة الحافظة والقوة المفكرة والقوة الناطقة .

ووصف قوماً من أهل الأرض ... أو ... أو عمة أو صم أو جدر أو كسح ... متعوا ... إلى وجه ... وجعل حيه يطفو في الماء والحس في أذهانهم ... وحس ... إلى ... في الزمن الذي ... وبين ... على ... وفصل ... وهم ... هذه كلها ... وهو ... وهذه أخرى ... وحس ...

... من الحس ... شيء ... هو ... وكل على ... هو ... وفي ... الإنسان ... من ... الحس إلى ... حيث ... عند ... من ... وعنده ... تنقسم إلى قسمين ... حسية ... وعرفة ... أو عبارة أخرى ... عرفة ميسية على ... وعرفة ... على ... كانت عند ... وعرفة ... عند العقل ... الأولى فيكون ... الحس فتكشف ... الحقائق كأنها ... واضح ... إليه حيناً ثم يحوجه ... وكل ... الإنسان في الرياضة تجلت له المعارف . وأما النوع الثاني من ... فهو مؤسس على الحس

معرفة يجوس خلاله ويدرك ويستنتج منها نتائج علمية هي أيضا نوع من المعرفة التي نسميها معرفة البصيرة

وقد جعل ابن سينا حي بن يقظان يسلك هذين الطريقين فتارة يستدل على معرفة الأشياء بحواسه وتركيبها وتارة بعقله بهذا الطريق الكشفي الذي يأتيه عند ما يصل حي بن يقظان مع سلامان إلى الجزيرة الخالدة فهو يترك لعقله وذوقه .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان الطريق الذي يسلكه حي بن يقظان حتى يتوصل إلى معرفة الله وحده وتلقائيا

. .

إن ابن طفيل في هذه القصة التي أبدعها قد أبدع عبقريا مشهورا من نوع وهو فيلسوف عالم في خلقه وأخلاقه وطبيعة نشأته وشبه الإخوة . فنشأت هذه الحكومة والشعب وكل فرد من أفرادها طبيعية في الأصل . وقد كان روح الحكومة قائمة على مبدأ الحرية المطلقة وخضوع كل فرد لإرادة الأمة . وهذا ابن طفيل يعتقد في الملكية . وقوته أو طبيعته عند كل فرد في مجتمعه الذي نشأ فيه على مبدأ الحرية في الكشف والبحث . وهذه هي أيضا طبيعة الشعوب . فقيل نشوء كل الطبيعية عند فيلسوفنا ابن طفيل أن يتأثر بما ألف كتابه على مذهب المشاء وهو الذي قرأ كتب أرسطو وكتب المشائين حتى في كتب الشفاء لابن سينا . فأرسطو كما نقدته من حرف حتى في جوهره وبعضه حتى في كثير من الأعراض المحددة

وهذا هو الذي دعا بمحيي الدين بن عربي أن يقول في محل ما له في محل آخر . ويكتفي في بعض الأحيان في موضع آخر . وهذا على هذا نقوله ابن الآبار تلاه الذي نسبه جمهور المؤرخين إلى أنه يكون حسب ما يوجب له كل مسألة مذهبا . وإني يكون بين الإنسان وبعضه . وقد كان الاختلاف بين الآراء مشوه هذا . ثم هو قد يكتفي بتسجيل ما قيل حتى على كثير من

قارئ كتبه . وهكذا من أنواع النقد التي تدل على بعد نظره وسعة اطلاعه

ثم بدأ يعرض عليه قصة حي بن يقظان نفسه ، وفيما اعترضه من ذلك كل مشكلة خلق الإنسان وكيف ظهر الناس على وجه الأرض ، وفي ذلك يعرف بصورة رأي داروين الذي يرى أن نوع مخلوقات متصل بعضه ببعض وأن نفس الإنسان إلا حلقة من هذه السلسلة ستمتد أخرى ، إلى أن انتهت بالإنسان . أما عند ابن طفيل فرأيه ، كل منهم يمكن أن يكون الأول أنه نشأ في جزيرة من جزر الهند ، تحت خط الاستواء ، فيتفق لإنسان من غير أم ولا أب لأن تلك الجزيرة تعدل بقية الأرض هواء وتهيأ شرعي هو الأعلى عليه استعدادا ، فتأثرت هذه الجزيرة بأشعة الشمس ، وتخمرت الطينة الصالحة على مر السنين والأعوام ، وتمخرت عوى ، وتعددت وتكونت ، وهذا مذهب بعض الفلاسفة من حول التولد من نصيبي ، ويرى أن حي بن يقظان تولد من غير أب ولا أم ، وبعد من أن ... كانت أمه هي أخت ملك حملت من الملك فقذفته في اليم وجرفه حتى إلى جزيرة أخرى ، حيث لقصة سنة كانت فقدت ابنها فحنت عليه ، وألقمه حلمها ، وأرضعه سائغا حتى ترعرع فهداه ربه بفطرته إلى أسمى المعارف فتعلم ما يرى ممكن وبعد الداني إلى أعداد الصنيعة وتعلم الاستعداد من الحد ونحوه ، بعضهم يرى أن الإنسان لا يمكن أن يتولد الا من أبوين

ثم إن حي بن يقظان بعد حين يقف على قصة أبسال وسلامان وعطف عليهما كما يعطف على أمه .

وما زال مع الظباء على هذه الجزيرة حتى تعلم منهم صوته ، وحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير ، وأنواع سائر الحيوان حتى كبير في الاستئناس والاستدعاء والاستدفاع .

ولما قلدها في هذه الأصوات المختلفة اختلاف هذه الأمم في لغاتها ونغماتها . فشيء

يدل على أن الإنسان يتأثر في حركاته وأصواته بتقليد حركات أمه وأبيه وأصواتهما . ومن أجل ذلك تكلم الطفل الإنجليزي بالإنجليزية ، والفرنسي بالفرنسية ، والمصري بالعربية . وهي نظرية سليمة ولولا هذا التقليد لتكلم الطفل أيا كان . غير أنه يعرض لجميع الحيوانات فيجعلها مكسوة بالأوبار والأشعار والريش إلا هو ، فإنه مصبوغ بالأدب والتقوى والحياء فيكسب ذلك ، ويرى بحر الفضلات مستورا عند الحيوانات بالأدب والأوبار ، فكان ذلك يحيطه فيقارب سعة نفوذه ويمنعه التخلي من ذلك لئلا من كل هذا . فبدأ يوسوس بتحبير عقله وتحدث من أوراق الشجر المربعة ما يكسو به ، ويعلقه بالحوض وحفظه ، ويكتبه ويحدث هذه الأشياء حتى ما قبل وتحدث عنها وتحدث من غصون الأشجار غصنا قدره قدر الأشجار عند الحيوانات وعلت طاقة أن يدخل حيز من الدنيا ، فكتبه من سائر عوالمه وحمل سلاحه فقام من المقعد بأوراق سعد وسرعة حدقه فكر في أن يأخذ حيوانا وأخذ ميت وصادف أن يرى سرعة فقده عنه وقطع حدقه بيده ، وسلخ جلده ، ثم قسمه إلى قسمين ، وتحد أحدهما على صدره ، وأخذ على سريره ما يحتاج أن يتقي الحاجين على عضده ، وتقلد بالسيف من جلده وكسه ذلك بعد وهيئة عند جميع الحوائج . ومن لا يريده يمنعه لا يعصيه إلى أن صعب وتصعب ما فسكت حركاته ، وتعصب جميع أعضاءه حتى من بعض ، وزهد بعضوه الذي يتقدم بالتأديب له ثم حب فكر صولا في هذا الذي سمه من يوت . فأخذ يتحصن بغصن بعد غصن بعصون ، وأخذ يتعلم ، فتدرب من جميع أعضائه الظاهرة ، وما يرتفع به ، فكان أن يكون لأنه في عضو ، فمن شرائعه بعضو عضو استفاد من ذلك معرفة على الشرائع . وأخذ يحصل بين أن العضو الذي سبب الموت يجب أن يكون في وسط حتى يتدبر لأعضاء بقوة وحيلة ، فإنه مات الأعضاء . فمن في وسط وهو حوله فتى القلب وهو محل بعث ، في بداية قوة

والرئة مطبقة عليه لحدته ورأى له من حسن الوضع وحسن الشكل وقلة الشعث ، وقوة اللحم ما حمله على أن يعتقد أنه سبب الموت واجتهد . ورآه قد تحمد فيه الدم الذى يوجد مثله فى سائر الأعضاء ، وشرح القلب فرأى تجويفه من تجويفه درعاً كان فيه حرارة ثم اضمحل . وأنه ارتجف واضمحل جميعه معه ، وبذلك أدرك سر الموت .

ومرة فتح بطن رجل فى أحد وأحضه منظره . ولم أحضه منه أنه لا يصل إلى شىء حتى يأتى عليه . هذا إلى صوته الرقيق ، وجزعه وقوته حتى لا يستطيع أن يمد يده إليه . وأراد أن يأخذ منه شيئاً فاحترقت يده . فلم يستطع الفحص عنه ، وأخذ منه قطناً فكسى به أنفه كله . ومر بعد ذلك أمس بالحشش والحطب الجزل ، ويتعهده بل هو استحسنه ومحا منه ، ولأن الذى كانت تخرج منه كانت تحدثه بالصوم والتقشف . فلا يعضى فى عمره شيئاً واعتقد أنه أفضل الأشياء لديه وكان يتمنى لعيسى دقة بحثه بل منه فحسب على ظنه أنه من جملة الجواهر السماوية التى كان يشاهدها . وكان من حين إلى حين يخبر قومه ، فيبقى فيه شيئاً فيرى أنه أتى عليه بل عاجلاً وبل حالاً

ومرة خبر قومه بأنه شىء فيه من سمك يدعى أنفه بحر الحبر ، فلما تصبح ثم به أنفه صفعة ، فحركت له شهوة ، فلم أكله ستصمه وأحس بقوة فى جسمه أكثر مما كان يجده عند أكل البر .

فتعود أن يأكل اللحوم ولأسماك حتى يصحح بها بدنه . وفى هذه إشارة إلى مرحلة التى قطعها لإنسان الأول فى تقدمه ( وقد حدثت أحداث فى تاريخ لإنسان الأول كانت عوامل حاسمة فى تقدمه منها اكتشافه النار واكتشافه الحديد ومعرفته عمل النار ولإنارة ومعرفته الكتابة وهكذا ، ولعلها ستكون بعد هذا التقدم )

وأراد أن يحقق فكره فى أن جميع مصدره القلب وهذا التجويف كذلك

تشريح حيوان حي ، ورؤية قلبه وتحويله . فعمد إلى بعض الوحوش وشقه كما فعل في أمه الطبية ، حتى وصل إلى القلب فانتزع القلب بسرعة ورأى التجويف مملوءاً بهواء حتى يشبه القصب الأبيض فأدخل إصبعه فيه ، فوجد حرارة تكاد تحرق يده ، ثم خرج البخار من التجويف فمات الحيوان كما مات الطبية .

والقلب إلى عضلة فوجدها تصلح لبعض الحيوانات دون بعض وتعلم من التشريح أن القلب يمد كل عضو بما يحتاجه ، فيعني أن يتوسع أداة الصيد حسب احتياجه إلى حيوان بحري وحيوان بري ، وحيوانات متوحشة وغير متوحشة .

فعمل من الحديد ومن الشوك القوي ومن القصب ما يلائمه من عمل أسنجة مختلفة تناسب الحيوانات المختلفة

ومرة فصل شيئاً من بدنه ، فرأى أن يختطف به فأخذ مخرزاً وحديده وركب من القصب المربوط بحديده إلى بعض ، مثلاً يصل به شيئاً من الحيوانات . وتوسع في ذلك فاستخدم جوارح الطير ليستعين بها على الصيد وأخذ لذواحس يتبع بعضها وفرحها بين آخر ذلك .

ورأى أن يده وأصابعه تعينه على الحركات المختلفة . غير أنه رأى أن بعض الحيوانات تفوقه في سرعة العدو فأخذ بعض الحيوانات من هذا القبيل وحقنه بحديده في العدو والصيد واسترضاها بما عنده فما من عداء وأخذ بعد ذلك في تشريح جثث جميع الأجسام التي في هذا العالم ، فرأى مجموعة من حيوانات ونبات ومعادن وحجارة وتراب وماء وهواء وريح ورأى في هذه أوصافاً كثيرة ، بعضها يشترك ، وبعضها يختلف فهي تتوحد عند الاشتراك في الصفات ، وتتنوع عند الاختلاف .

ثم هناك صفات مشتركة في الأشياء كالطول والعرض وصفات مشتركة في جميع الحيوانات ، وكذلك الشأن في النبات والجماد . يرى مثلاً أن جنس الحيوان يتحرك وجنس النبات لا يتحرك ولكنه ينمو ، وجنس الجماد لا يتحرك ولا ينمو ووجد هناك أوصافاً تعم كل نمو ، كالتحرك وغير متحرك ، نامية

وغير بسيطة فمثلا كل هذه الأجسام إما حارة أو باردة، ونجد في جميع الأجسام حيث وجدت، فرأى أن كل واحد منها لا يخلو من أحد الأمرين إما أن يتحرك إلى أعلا، كالدخان واللهب والهواء، وإما أن يتحرك إلى أسفل كالماء والتراب، لأن هذه طبيعتها إلا أن يحول دون ذلك حائل. ولا نعني بجسم من هذين الجسمين، فكل واحد منهما بسيط، ثم إذا ما خرج عن الجسمية، فظهرت فيه الأعراض التي لأجلها كان للجسم، من حيث هو جسم ما تحقق، وعن عدمها يتحرك إلى أعلى أو يتحرك إلى أسفل، وبعكس. ثم هذا يشكل في الجسم في التشكل في الروح، ذلك لأنه في سائر الأجسام من جماد ونبات وحيوان مركبة من معنى جسمية ومن معنى آخر زائد على الجسمية، لا يدرك بالحس حتى يقال الجوهرية في كل منها معنى زائد على جسميته، وذلك المعنى هو الذي نعبر عنه عادة بالنفس أو الروح. وهذا الشيء هو الذي يميز بين الأجسام بصفة، فيصير به هو هو.

فكل من يشك الآخر في جسميته، وكل جسم في جسميته، كذلك قد اتصف بروح واحد، فصار الجسم عن النفس عن الجزء الواحد في جسمية روح.

ثم نظر في الأجسام فإذا هي قد اشتركت في ثلاثة معان وهي الوجود والعلم والقدرة، فوجد كل معنى من هذه المعاني الثلاثة واقفا على أن هذا معنى غير ذاك ووجد هذه المعاني في كل جسم، فإذا كل جسم فيه قدرة في الجسم فيه على أن يحدث حركة ما وصعود بعض الأجسام وسقوط بعضها يدل على أن كل حادث لا بد له من محدث.

ورأى أن جميع الأجسام التي شاهدها جاهلة بأن تكون، فعلم أن معنى أن يكون موجودا وعدم علمه بأنه كان هو حصول هذه المعاني فيه، فإذا عدم أن يكون جاهلا فيه ومعنى أن يكون عالما فيه، فإذا فيه يكون جاهلا ولا بد له من محدث، والأجسام التي عدمت عن هذه البنية هي جاهلة،

بفعل هذه الأفعال المنسوبة إليها . وبذلك اهتدى إلى فكرة الخالق فتعقد الأشياء الموجودة بحكمة وترتيب مشيئة في الأصول وفي التكوين ورأى أنه لابد أن تكون صادرة عن فاعل واحد ومن إله واحد .

ثم بدأ يتصور في الأجرام السماوية فرأى لها كذلك الأوصاف التي عرفها من قبل وهي الطول والعرض والعمق ففي حينئذ أحس بوجوده صح عنده ذلك وتأمل فيه رأى أن الشمس على شكل كرة وقوى ذلك في اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب إلى مشرق واحد منهما في مغرب وما رآه يلحق من أنهما تضيء بعضه على قدر واحد من العظم في حين طلوعه وتوسطه وغروبه . ولما كانت حركات هذه الكواكب في بعض الأوقات أكبر أو أقل منها في وقت آخر ولاحظ أن حركة بعضها من مشرق إلى مشرق وعلى الجملة فقد عرف كثيراً عن علم الأفلاك واهتدى إلى أن لأفلاك كثيرة بحكم أشكالها وعلاقاتها إلى أن ينتهي إلى محرك أول وهي الله تعالى . فاعتقد جملة كشيء واحد متصل بعضه ببعض وهو محكم في أمر ما فيه وتطرد عنده شاهد بعضه على بعض وهو هو من حدث مبدأ الكل وخرج إلى وجود بعد العدم أو هو أمر كل موجود في كل وقت بعد أن لم يكن فاشتبك في ذلك وهو يترجح عنده أحد الأمرين الوجود لأن كلاً منهما على كل فرض من الفروض ، وهنا بدأ يشير إلى اختلاف علاقاته في أن علاقة قدمه أو بحدثه

وعلى كل حال رأى بعد جميع الموجودات في وجوده إلى وقت وهي بعضها بعض كانت بحدثة بوجود أو قدمه وهو في ذاته على غير ذلك فهو منزه عن ذلك كله وما فيه من أرض وسموات وكواكب وما بينهما بعضه وحقه ، وبينما هو كذلك إذ حدث في قلبه أحس من الأجسام تحركت هذه في ذلك الجسم لا بحركة بعد حركة متأخرة بعدت ، وبعد متأخر من .

ورجع ثانية إلى جميع الموجودات فتصفحها على طريق الاعتبار في قدرة صانعها ، ولمحها من غرائب صنعه ، ولطيف حكمته ، ودقيق علمه ، وما في أقل الأشياء الموجودة من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما يقضي بالعجب العجاب . وتحقق أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار في غاية الكمال ، وأنه أعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى ما يصلحه . فلولا أنه هدى الأعضاء التي خلقت له لما انتفع بها الحيوان وكانت كلا عليه ورأى أن كل شيء في الموجودات به حسن وبهاء وكمال وقوة أو أي فضيلة من الفضائل من فيض ذلك الفاعل المختار ومن جوده . فهو ولا شيء أعظم وأكمل . وهو بريء من كل نقص فيها . لأنه ليس معنى النقص إلا العدم المحض ، أو ما يتعلق بالعدم فكيف يتخلف العدم ، وهو واجب الوجود بذاته ، وهو الكمال وهو المعطي ، وهو البهاء ، وهو القدرة ، وهو النور ، وهو هو ، وكل شيء هالك إلا وجهه .

وصل إلى هذا الحد من المعرفة حتى لم يعقل معه حسه ولا ما يليق به وقد استغرق نفسه في نور هذا الفاعل ، ثم التفت إلى شيء آخر وتأمل ما حصلت له هذه المعرفة ؟ هل من جوهره الحس ؟ أعني لا يدرك به إلا الشيء الإدراك الحسي ، والسمع لا يدرك إلا المسموعات ، والبصر لا يدرك إلا المبصرات وهكذا حتى حيث لا يمكن أن يدرك شيء إلا بإدراك يليق به من خاص وعام ، وقد علم أن هذا موجود واجب الوجود يرى من صفاته لا أعني أنه يدرك بالحس ، وأن هذه الحواس بما تدركه لأنها قاصرة عنه لا يمكن أن تدركه

ورأى أن كل دابة والتي هو تحت هذه ذلك الموجود واجب الوجود ، ولكن مع الأسف كثيراً ما تشغل الحس حوائج ضرورية وصحية وعوائق تصرفه عن التفكير المديد ممتع في واجب الوجود فتفسد حياته ، وتصاب بالحرص ، وأنواع العجائب . فكيف يتحاشى ذلك ؟ وهل هناك من علاج هو أنجع من تقوية نفسه أكثر مما يعيق بتقوية جسمه وأن يجتهد في أن لا يحول بينه وبين بصره الباطني الأشعل

سادت وأصر في ذلك . كما أمثل في سم الخياط التي تمسكه حتى تقوى وحده ، ولا تعطيه أغراض جسمه

وفكر في ... كهلات وسوكه معه ، فهو ... حي على احتوال ودعه عندي عنده من غير حق ... ترك وعدي جيده ضعفت قوته وكذلك الناس في النهار . في النهار والنهار وحوانيت ... وحدتهم هذه تقويهم ... كل ... كانوا وحوا وحوهم ... كله في عدده الحدة ... فكر في هذه الشكلة كما ... ولعلا معرفي ... حوه ، وكل ... يكن ... الرعاش ... كله من الحيوان حتى ... شرطان تدج ولا من الحوه ... كله في نصحت ، على ... عنده ... فيه في موضع ... ات . في ... عنه وجود من هذه ... ات كاح وفكري كل ... من النهار في كلها ... كاحو والعنب ... حد نفسه من ... كبرها وجود ... فوها ... في عدده ... عنده ... من الحيوان ... من بيضه ... كبيه على ... يخلو من ... كيه ... وجود ، ولا ... ص منه نوع ... نسده ... ثم إذا ... كل منه ... كبي ... يعد رمته . ولا نعود إلى ... كل إلا بعد جوع

ثم فكر في ... جسام ... وه ... كل بعضه ... الأوس ... جسم ... ه ... في من الإنسان في صفاته وروحه ، كوجه سعادة وبرة ... ه ، معرفة على الكبر ، وصروف الرحلة ، وأنه صخرة ... لا ... رة على مركز نفسه ، وعلى مركز غيره ، وأنه ... منعه ... ات هذه وحب ... وحوه ... لا ... حر ... لا يشبه ، وأنه حين ... يغطي نفسه ... شه به ، فلا ... شع خبر على ... ه ... أنه ... بعد ... نه نفسه ... لا يرى داعية أو حاجة إلا وعنده قدر ... كفايه . ... وه في ذلك ... نات والحيوان ... الإنسان قد وقع نظره على ... نات قد حجبته عن الشمس حاجب ، ... ونفق له ... نات حجر يؤذيه ، وعطش عظيم ... كاد يقتله ، ... ن عنده هذه ... حب ... ويذري حيوانا ... د ... ن ... كله سبع ... صنع ... ونفق في عينيه ... ودنيه ... يؤذيه ، ... ومنه طعام ... وجوع

تكفل بإزالة ذلك . وإذا رأى الله تعوقه عائق عن أن يسقى النبات أو الحيوان زال هذا العائق ، فكان خير بكل ما يقتضيه معنى الكلمة ومن ناحية أخرى تشبه بالله في أن يلتزم طهارة نفسه وصفاءها ، والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات ، وتقليم أظفاره ، وتطهير بدنه ، وتنظيف ثيابه ، ثم يتحرك متجهاً حركة مستديرة ، فيطوف مثلاً حول الحجرة ، أو البيت ، أو نحو ذلك . ثم يأخذ في تشبيه نفسه بالله في تفكيره في واجب الوجود ، وفي التقليل من علاقته بالمحسوسات وأن يقتصر على نفسه أحياناً بقوة وعمق ، فيغيب عن نفسه ويتصل بواجب الوجود .

واستغرق في حالته هذه فرأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واطلع من ذلك على مخلوقات كأعظم رجال الصوفية . وقد وصل إلى هذه الدرجة عند تطهير نفسه وإلى تفرغه على عموم ما رأى نفسه ، فرأى أن لا ذات به تتجرد ذات واجب الوجود وأن العلم الحق هو العلم بالله وبصفاته وأفعاله ، وأن العلم من الله تعالى لأحسن الكشفة مع علمه بالشمس فيظهر فيه ، وأنه إذا نسب إلى الجسم شيء وفعل فهو في الحقيقة من الله كنور الشمس ، على نحو ما شرحته فلسفة « أفلاطون » من وحدة الوجود ، وأن ليس في الوجود إلا الله

ورأى في أثناء ذلك أيضاً ، فاطمأنت نفسه إلى ذلك كله ثم نفسه من حالته هذه التي كانت تشبه بالإضافة إلى حياة الحس كما كان . وتاب عن عمله الإلهي بعودته إلى العمل الخيري بدعوة كل الناس عهد مبشراً في كل واحدة ، فتحمل تكاليف التدريس وتشتد شوقه إلى حياة القصوى ، فيحن إليها من حين لآخر ، حتى تعود الحصول عليها بأيسر جهد .

• • •

ويحكى أنه كان قد مر من الجزيرة التي يسكنها حتى من يقطن جزيرة أخرى كانت قد وصلت بينها علاقة المسيحية على حقيقتها ، وكان من بين سكانها رجلان فاضلان مبجلان شريعة النبي ، غير أنهما كانا يحتذيان منهج ، فأصل كان أكثر

غوصاً على الباطن ، وأكثر عثوراً على المعاني الروحية ، وأميل إلى التأويل ، وأما سلامس فكان أكثر تحفظاً وتظاهر ، وأبعد عن التأويل ، وإن كان كل يلتزم شريعة واحدة .

وأراد أسمال أن يكبر الفعل حتى يقف على حقيقته فحيث به لعبة فرحل أسمال إلى جزيرة حي بن يقظان ، فلما وصل كان به من مال ١٠٠ أكرى بعضه مركباً يحمله إلى تلك الجزيرة وترك باقيه على الساحل

ومشى أسمال إلى تلك الجزيرة بعد ذلك ، ويتفقده ويتفقد ، ويتكرر فيه ، وإذا حي أكل من ثمار تلك الجزيرة وحيوانها . وقام على تلك الحال مدة . وكذلك كان حي بن يقظان مستغرقاً في مشاهداته ، يبحث في سر هذه الأمور دون انقطاع ، ولا يخرج لأحد . ويتصادف أن خرج حي بن يقظان يتفقد غنمه فرأى أسمال ، فظن أسمال أنه من عبيد سلامس ، غير أنه لم يكن كما اعتقدهم هو ، لغنى أن لكلمة حي لا يفهم معناها .

وأما حي بن يقظان فلم ير ما هو أسمال ، لأنه لم يعتد بصره على رؤية من قبل ، ورآه شبحاً له . وولى أسمال هارباً ، فجرى حي على أثره حتى لحقه ، وقبض منه شديداً فتشبث ، وتشوق أن يعرف ما شأنه . وخرج منه أسمال ما أبى عليه من جلود الحيوانات حتى صار كأنه حيوان متوحش ، فظنه حي ، وكان أسمال قد تعلم كثيراً من اللغات ، فكلمه بها فلم يفهم حي فقد أسمال يعلم حي بن يقظان الكلام ، بطريقة لطيفة . وهي أن يصحبه أبداً بالإشارة إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه حتى يعلم الأسماء كلها ، كما هي أحدث طريقة في تعليم اللغات اليوم» .وتدرجه قليلا قليلا حتى تكلم في أقرب مدة . وسأل أسمال يسأله عن شأنه ، وكيف صار إلى تلك الجزيرة ، فأعلمه حي أنه لا يدري لنفسه ابتداء ولا أباً ولا أماً ، أكثر من الجزيرة التي رآه . فوصف له حالته كلها وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول إلى الله . فلما سمع أسمال ذلك تعلق بحبه بعقول وتلمذ له ، وبدأ

بلغ ما وصل إليه حي بعقله ، وما حده به إليه الأنبياء متقين .

فعلم حي بن يقظان وأدرك حكمته ثم جعل حي بن يقظان يستفصحه عن شأنه ، ويسأله عن حاله ، ويفسر له أبسال الدين والصلاة والصوم والزكاة والحج وما أشبهها من الأعمال الظاهرة ، فكان حي يتعجب ، ويضرب بسهول الأمثال لكل ، ويحملهم على ظواهر الأعمال ، ولا يقصر على هذه الفرائض ، بل يحثهم على الأموال والتوسع في كل ما يحتاجون منها حتى يفرغوا لعبادة الله . وأصعب ما كان يعرض عليه أمر زكاة ، فلم يكن معنى عنده لإباحة بني الادخار للأموال ووضع من رتبة من أحكام لأن المال الباطل يكفي منه اقتناء ما يلزم سد الحاجة فقط ولا حاجة بالإكثار منه ولا مطمع لأحد على سرقته ، بل أشياء أخرى تعرض عليها في هذا المعنى ، ورأى أن يرحل مع أسال إلى جزيرته حتى يعلمهم أكثر من هذا الذي قضت بعقله مسألته ، ويدعهم يرجعون إلى مكان بعيد

ثم هاجت ريح رخاء حملت أسال إلى جزيرة مقصودة ، وكان أمير تلك الجزيرة سلامان ، يرى ملازمة الجماعة . ويقول بشرعة نبيه وحتم العمل بما تضمن عرفهم أسال مكانه فقصد حي بن يقظان مقصد نبيه بسلامان في الدين وجوه احتقروه ولم يسمعوا له قولا . ورأى في قومه فعروا منه ، وعلم من أحلامهم بطلبات الناس في فطرتهم وسذاجة ، وأنهم لا يصلحون إلا بما أتى في به أنبياء وأن لا سبيل أعرف منه بنفس بشرية وتصرف حي بن سلامان واعتذر عن سكوته وأنه قد رأى من قومه ورفقه على ما هم عليه . ورأى أن عليه بما يصلح قومه في من هذه الصفة فتحبب أسال وعلا في جزيرته . وكان أسال يجد حتى بلغه أنه قد مات حي بن يقظان فرجع إلى أن أتاهم موت . وبذلك انتهت القصة .

* * *

فنرى من هذا أن ابن طفيل في كتابه حي بن يقظان يذهب مذهب الفقي

والكشف معاً وأن الإنسان عليكيه هاتين يستطيع أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول ، ومن المعقول إلى الكشف وأن الفكر مستقل عن اللغة ، فهو يعلم أن الفلاسفة الشرقيين والعربيين قد اختلفوا اختلافاً كبيراً هل يمكن العقل أن يفكر من غير لغة ، أو لا بد له من لغة . فقد كان حي بن يقظان وصل إلى ما وصل إليه وهو لا يعرف لغة حتى وصل إلى الكمال . دل ذلك على أن الفكر يمكن أن يكون مستقلا عن اللغة .

ثم إنه يرى أن الإنسان وإن كان عارياً من السلاح ضعيف القوة ، قليل البطش ، عاري الجسم ، استطاع أن يغلب الوحوش بقدرة عقله وأن يصل إلى الغذاء وأن يكتشف الدور وفوائدها ويعرف خصائص أعضاء الجسم حتى بعد استطاع أن يعرف أن في كل محسوس من جماد ونبات وحيوان شبحاً روحياً غير جسم فأدى ذلك إلى وجوده ، وأخيراً بعد أن تم نضجه عرف نفسه وكان قد تلقف تلقفه دينية من تعاليم النبي فقد عمّ حتى الكلام ، وعرض عليه ما وصل إليه من تعاليم دينه ، وعرض حتى عليه ما وصل من تعاليم عقله وجد أنهما متفقان في الأصول . وإن اختلفا في الفروع . يشير بذلك إلى أن الدين يجب تأويله ليتفق مع العقل ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وسائر أمور لا يرضى عنها العقل كالجسم الأصول والإباحة ما عصيه بعض الثبوت عند من الدين لأن أكثر الناس ، يعبدون مجسماً رقيعاً ، كالذي وصل إليه حي وأن الدين حين يراعي الجمهور لا الخاصة وحدهم ، ولذلك ما حس حي أنه يستطيع أن يعلم الناس أكثر مما علمهم الدين فشل في ذلك كل الفشل ، واضطر إلى الانسحاب من جزيرة أيسال إلى جزيرته الأصلية

وقد لخص ابن سينا هذه ، ابن رشد معاصر ابن طفيل إلى هذا الموضوع الهام وهو أن ليس بين الشريعة والعقل خلاف وقد ذلك ابن سينا في كتابه ، وألف ابن رشد في ذلك أيضاً كتابه المسمى « فصل المقال ، فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال »

[illegible] فشرح ذلك في شكل قصصي بديع .

ثم خلق توافق بين [illegible] طفيل من ناحية أدبيه وحدث ابن طفيل نفسه [illegible] يكثير من حيث بعثه لأدب ، فهو يرى ابن طفيل أدبية مشرقه ، وعبرة ابن سينا معقده عاصمه ، ويقرر أن ابن طفيل كان مشغوفا بأدبه أكثر من فلسفة ابن سينا ، وفي كثير من عبارات ابن سينا وأقواله ما يدل على أنه كان يسعى بمعاصريه نحو الفلسفة ، لأن كتب الأدب ، فإذا بعض الأحيان نجد ابن طفيل يستقي بعض فلسفته اليونانية وأدبيه من كتب الأدب والشعر ، فإذا عند أنه يتبع ويتبع

ثم إن ابن سينا [illegible] كثير وحدد التصوف فإذا عبارة غامضة كل الغموض ، يستحيل أن يعلم كنهها إلا قوم من الله . على حين أن رموز ابن طفيل قريبة [illegible] كان رموز ابن سينا يسمع عوصم على كل حال أخف من رموز السهروردي كما سيرى بعد .

أما قصة حي بن يقظان عند السهروردي فقد [illegible] إلى [illegible] قصة حي بن يقظان وصادقها مع ما فيها من تحدث [illegible] وإشارات العميقة عالية عن [illegible] وحدت تشير إلى نحو الأعظم تجلى في الكتب الإلهية وهدى يقرب عليه مقدمات الصوفية وتحدث مكاشفات وهو يشير إلى ذلك إلا في حرب [illegible] أردت أن أذكر صورا في قصته تحسب أن قصته [illegible] وقد [illegible] مع حي عاصم من [illegible] وراء [illegible] ساحل بحيث حضر إلى مدينة الجيوش بالمغرب . فلما حس قومها بقدومنا عليهم وأنا من أشد عدوهم أحدوا وقيدوا بسلاسل من حديد وحبسوني في قاع بئر عميقة . وكان فوق البئر قصر مشيد عليه أبراج عالية وقالوا لي لا خلاص عليك إذا صعدت القصر مجردين إذا أصبحت أمام عند الصباح فلا بد من الهوي في غيابة جب »

وتصادف أنه اختفى [illegible] من بلاد المغرب وهي مجهولة لأن تسطع عليها الشمس

عند شروقها عكس ما إذا كانت في المشرق وطلوع الشمس رمز سطوع العقل وتحكمه. وإنما جعلهم يطعمون في الماء إلى العصر ويعيشون في قاع البئر في الصباح لأن الإنسان يكون في ترف ونعيم إذا اتبع شهواته وغاب عنه العقل. ثم إذا طلع عليه العقل وتحكم في شهواته عاش عيشة سعيدة. كالتي يعيشها العقل الحكيم.

ورمز بحية البئر إلى حية الفتنة التي تتحكم فيها الشهوات ثم قال «فبينما نحن في الصعود هبوطا وهبوط نهارا إذ رأينا هدهدا مسخما في بيه قراءة في منقاره كتاب صغير من شعبي الوادي الأيمن من البقعة المباركة وقال لي أخطب وجه خلاصكما وخشكما من سنابك نقبين وهو دشروح في رقعة أيكة».

والهدهد في هذه القصة هو وحي العقل الذي يهدي بين الأشياء على حقيقتها وقد أتى هذا الهدهد من الله برسالة فيها الحكمة وفيها النور الذي كشف الظلام من عند نبيه وهو الله تعالى وهو العقل، وجعله مرشدا في الإنسان وفي هذه الرسالة بيان كل شيء وكشف كل محجوب. هذا الهدهد يرشدهم وجه خلاص كالهدهد. ثم فتحوا رسالة الهدهد وإذا فيها «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين كما قم ترحما وشكرا كما قم عيسوا في أرضكم ثم تحصنوا ثم معكم فلا تسيروا في هذا السفر واعتصموا بالله وهو جوهر الثالث القدسي مستوى على واحي الكسوف» فهذه يريد أن هذه الرسالة وهي رسالة عقل عن «إنها من الهادي أي من الله. وأنها كما شوقت النفس إلى وصول الله والتحرر من حسه وكل لذات الشهوات وخضع الإنسان لله وهو خضع عقله. وعمل في سبيل الله مستقرين عاصم يسيره إلى أن العقل يعصم الناس من الزلل. وأن الإنسان إذا أراد الراحة فعليه ألا يحيا في السفر بعيدا عن الشهوات وتركها وراءه والاعتصام بحبل الله عن طريق العقل والكشف. ثم قال «فصاروا وركبوا في السفينة التي سماها الله بحريه وركبوا في سفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونحن نروم الصعود على ظهرها حتى ترقى صومعة أيكة ونحن نسبح، وكل

من المغرقين» أى أنه أوصى الذين تركت السفينة منجرفة من الشهوات وتسير بهم حتى توصلنا إلى بر السعادة ، فنتصل إلى طور سيناء حيث وصل أخوه موسى إذ رأى الله . ولكن حركت السفينة فى موج من قلق بحر الطبيعة الجثمانية ، وسيلاء دواعيها وعلة أهوائها ، فكانت كالسفن الجارحة للبحر ، المانعة للسير ، وحال بين الإنسان وبين الوصول إلى الله هذا الموج ، موج هوى النفس واستيلاء قوى بحر الطبيعة فكان من المغرقين فى بحر الهيولى الجثمانية . ثم قال «فتقدم أمدهد وصارت الشمس فوق رؤوسنا ، وركد السفينة وعلى ذروة الصعود على طور سيناء حتى ترقى صومعة نفسه ، ورأى فى الطريق جماعة عاد وثمود ، وأخذت شياطين مع الأفلاك وجعلتهم مع الجن فى فاورة صفتهم ، فقد تقطعت المسافة ، وخرجت من الضيق ، وفار التنور وارتفت الصخرة العظيمة على قمة الطور العظيم ، وصعد إلى جبل وريب فيه شيخ كبير كأنه السموات والأرض منشق من أعلى ذروته فنفيت منه بحيرة منه ومشت إليه فسمع على فسجدت له وبكيت عنده وبكوت إليه من حبس قيودى» فعلم أنه ترك فى تلك السفينة الكائنة فى بحر الهيولى الأموات تجرى باسم الله مجراها ومرساها . أى باسم الله الأعظم الذى هو وجود كل شىء ، ويعنى بجماعة عاد وثمود الناس الذين هم صرعى شهواتهم وأهوائهم وقد وقع شهوات وعلى وجوه الشر المعبر عنها بالجن فى قعر بحر الهيولى لا تخرج مرة أخرى وتحمله على الفساد ، وفار تنور أى تنور الجسد بسيلاء حقق على الأخلاط الفاسدة ، وعلى ما انطوى على روح الحيوانية وصعد الغضب وسد ذلك وصل إلى صخرة الوحدة ، وشاهد الله الذى منه كل شىء وشكا إليه الإنسان من حبسه فى الجسد ، ثم قال له «إنك لا تقدر الوصول إلى سجن قيودى فقد كتبت ذلك على ، وأنا هنا صرح صرح مشرف على الهلاك ، فتضرعت إليه فقال «لا بد العود فضرورى لك ، ولكنى أبشرك بشيئين أحدهما أنك إذا رجعت إلى حبس يتمكنك معى وإليه تنتهى والثانى أنك متخلص فيما بعد إلى حبسك كما يلاقيه بشيرها . فرجعت فقال «أى أن

الإنسان بعد أن تصل إلى هذه الدرجة الموصوفة الكاشفة يعود أحياناً إلى نفسه وهو بقدر وحسه وحدته في قلب مستغرق، وهكذا حتى يسهل عليه الخروج منها والاتصال بالعالم الأعلى. فهو لا يترك نفسه بمجرد وكيفما يعود إليه من حين لآخر حتى يدركه الموت، فبينما هذه تتصل بالرفيق الأعلى. وهذا ما عنته جمهور الفلاسفة من أن النفس كانت عالمة بكل شيء فنسيت في الجسم الثقيل، أخذت تتذكر بعض ما كانت تعرف وتستعد إلى حياتها الأولى بعد الموت وبعد انقطاع الصلة وفي ذلك يقول ابن سينا في قصيدته المشهورة

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

وقال مثل ذلك ابن طفيل في آخر قصته التي سماها السهروردي ولما حطت رحله، ورأى ساحة فيها ذهن يبعث نوراً ويبشر في قطاع البيت ورأى أسداً وذئباً ونمراً وكلاً منهم سمع تركوها في سبيله، فهنكهم ولا ينال ووقعت فيه نار صاعقة فلم تقربه أحرقت، وفي الثور رأى الأجرام السماوية، وسمع صوتها وهو منها شيء، فعلم بذلك أنه ابن عين حمأة، ورأى الصخرة العظيمة على قلة الجبل العظيم وفي جنبها مجتمعة وتحت واحد منهم سبيل في البحر هرب، وقال له ذلك ما كنت تسمع في هذا الجبل قال وما هؤلاء الحيتان، فأجيب بأنهم يحرسون قال قد سمعت ذلك عامتهم وفرحت بهم وفرحوا بي، فصعد إلى الجبل، ورأى له شيخاً كبيراً يكاد السموات والأرض تنشق منه وعلم أن هذا جبل طور سيناء وفوق هذا الجبل مسكن والده وحده وكلمه عليه، وبه يستعين ومنه يلتمس وله البهاء الأعظم. والجلال الأرفع، وفي هذا إشارة إلى مسلك الإنسان في سبعة أطوار فيها حياته هي عبارة عن شهواته وعن غرائزه وسفاهه وعن معصيته فإذا استطاع أن يعبر كلها وصل إلى بر السلامة وارتفع من ذلك إلى القمة. والحوت الذي اتخذ سبيله في البحر سرباً هو النفس الإنسانية سرت إلى بحر الحسد، تأويلاً لقصة موسى مع الخضر، فإنه

لما حوره وثنى على موسى النفس والجوع تذكر الحوت والاعداء منه . وفى هذا إشارة إلى حالة ولادته واتصال الروح بالبدن والبدن فى عداء ، ولما نقل قوله لأن العداء فى النهار ، والولادة خروج من ظلمة الرحم إلى ضوء الدنيا . والصخرة هى عبارة عن صخرة النجاة والوصول إلى المعرفة الإلهية . والسفر كل صعب وفى سفر النفس ، لأنه سفر الإنسان الطويل إلى الحضرة الإلهية ثم رأى الله وهو المعبر عنه بالأب كما رآه موسى ووجد عنده قوماً صالحين وصلوا إلى الله قبله فأنس بهم وصاحبهم ، وختم الرسالة بقوله « وبقى معى من هذه المدينة ما أحقق أن أشرحه فانتجبت وابتهلت وتحسرت » إلى أن قال « نحمد الله على قيد الحيوان والطبيعة والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعترته الطاهرين وهذه النفحة سمى العلم الحقيقية » .

فأراد السهروردى أن يبين مرحلة الأخوة فى عقد الإيمان وهى الصحبة بالله والانكشاف التام له والتغلب على الصفات التى تعترضه من شهوات وطمع وغرور وأنه لا يمكن التغلب عليها إلا بمجهود كبير وهذا من شأنه شخصية النفس الهادفة مع سليمان فالخضر كان حين يتغلب فى نظر ابن سينا هو العقل الإنسانى وفى نظر ابن طفيل هو الإنسان نفسه باحثاً منقباً عن الحقيقة حتى يصل إلى أن حى بن يقظان عند السهروردى هو الإنسان الذى أكمل عقله وأراد أن يفيض من طريق الكشف والذوق إلى معرفة ربه ثم وصل بعد ذلك بعد صول عقله إلى [illegible] متفلسفاً ، وابن طفيل جعله إنساناً عاقلا ومتصوفاً والسهروردى جعله إنساناً متصوفاً يعلم به المتصوف إلى حد معرفة ربه ، وابن طفيل ترقى ثم وصل به إلى أن جعله والسهروردى أرقى ثم وصل به . فابن طفيل ثم إن عبارة السهروردى غامضة كل الغموض لا يفهمها إلا من أمعن نظره فيها فهى نوع من الأدب الرمزى الذى يسلكه ويعمق فيه بعض الكتاب ويسمون أدبهم أدباً سرياً ، ويعتقدهم فيه بعض الشرقيين وبذلك تعيب عيوناً فى فهم مرادهم ومن طبيعة الأدب الرمزى أنه يحتمل المعانى الكثيرة والتفسيرات المختلفة ويذهب كل مفسر فى تفسيره مذهباً يتفق مع مزاجه وثقافته والله أعلم

# حی بن یقظان

عبد ابن سینا

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله وبه أستعين ، وعليه أتوكل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

أيها السادة إخواني على القصة ، شرح قصة حي بن يقظان هذه الحكاية التي لا تستغني عن الشرح والإيضاح ، وحل عقد عرى في مجملها والمطلع عليها ، فقد التمست مني ذلك — والله الموفق »

اعلم أنه قد تيسرت لي حين مقامي[1] بالأندلس ( مدينة ) ، ووفدت إلى بعض المتنزهات[2] المكتنفة لتلك المدينة فسرت بين بساتين ، فشاهدت شيخاً قد أوغل في السن وأخذت منه السنون ، وهو في حرفة الفلاحة[3] ، فلم أر منه بطئاً ولا تصنعاً في ركن وما عليه من المشيب إلا بدو من يشيب — فترعرع بي تجاسره وسعيت من ذات نفسي لمداخلته ومحاورته[4] ، فمت[5] إليه فوجدته دون ما وجدته هو بالتحية والسلام ، وقابل فتحه مقفوله ومبتدأ حديثي فيما يلي مسألته عن كيفية تحوله وسلامته منه وصناعته التي تمهد بها وسبب فعله ما اسمي وسمي في من يقطن وما عنى بقوله نحن بنو يقظان ، وأما حرفتي فالسياحة في أقطار العمور حتى انتهت بي وجهتي إلى أن وهو حي وقد عصفت منه ريح يوم كله فهدى بطريق سلكه إلى وحي أهله حتى رويت سياحتي آفاق الأقاليم ، فما رأيت أحداً مسائل في العمور وسفيهه عن معتقده حتى خلصت بي عن الفراسة ورأيت من صدقه فيه ما فضلت به أخا المحب ، وذكرت أنه انتدب لي بجوابه فقلت : « إن علم الفراسة من العلوم التي تقدم عائدتها تقدماً فيحسن ما يسره كل من

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) [illegible]

سجيته فيكون [illegible] وتفصلك عنه [illegible] وأن الفراسة [illegible] على عفو من الخلائق ومنتعش من الطين وموات من [illegible] (١) وإذا [illegible] (٢) [illegible] الإصلاح [illegible] وحوت هؤلاء الذين لا يرجون عليك (٣) [illegible] أو تكسبت [illegible] وإن هذا الذي [illegible] (٤) [illegible] وتحقق [illegible] احتلاق [illegible] (٥) [illegible] على أنه هو [illegible] وعرب من [illegible] فقد حق [illegible] من بطنه [illegible] صوابه من غواشي [illegible] إذ لا [illegible] التوفيق [illegible] عن تجديد الصلاة [illegible] عن [illegible] (٦) [illegible] إذا [illegible] في حطب، أو سيل في صبب أو [illegible] (٧) شره قوم شبق لا [illegible] ولا [illegible] هؤلاء [illegible] لا [illegible] (٨) [illegible] ولا [illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

(٧) [illegible]

(٨) [illegible]

عنهم فلتطهم يدك ولتعنهم سطوتك ، وبيك أن تقصمهم وتمحقهم ، وتسهل لهم قيادك بل استعمر عنهم حس الأنة وسمهم سوء الاعتدال فيك ، بل مست ثم سحرهم وبه يسحرونك ، وركنهم ولا يركنون ، ومن توفيق حيلك فيهم أن تسلط عليهم الشكس تزعج على هذا الأرض التي تورثه وراء فكسره كسراً ، وأن تسدرج علوه هذه الثانية لتسير خلافة هذه الأرض بمن تتحفصه حفصاً ، وإن هذا لهو المتحرص فلا تحتج إليه ، وتوثيق موثقاً من الله ميثاقاً فهو ذلك صدقه تصديقاً ولا تحجم عن إضاحه ، وبه ما يهيه إليك ويشد قلبك من نعمه من آياته ما هو حجة بينة وتحققه به ، فقد وصف لي هؤلاء [illegible] وحدت قلوبهم مداً إلى تصديق ما قرفهم به فقد استمالت في امتحانهم طريقة مستقيمة صحيحة الحجة منهم حجة عليهم ، وإن في مرورهم ومقامهم فيها لذكرى لمن يعتبر وشاهداً على والله على مسلك على حسن محاورته هذه الفرقة إلى حين مفارقته — ثم إلى الصديق[2] هذا الشيخ بمن ليحة استهداء حريص عليهم مشفق بهم فقال له يا ومن هو سليمك من مثل مستحق مصدود وسبيله عتيد وعليه مسدود[3] ، وسمعت الفرد وله موعد مضروب من نسمه فاقم لساحة مدحوة بدمه سيح حيث وضع هؤلاء حيث قمي خرجت بسياحة تكمه شاملك وافتتك وقطعهم وإذ حسن حوهم استبشر بهم وتقصى حتى بلغ ذلك أن تتولى وراءتك منهم فرجع به الحديث إلى مسألته عن قيم إقليم ما أحاط نعمه ووقف عليه خبره فقال لي بل حدود الأرض الأربعة حد يحده الخافقان[4] وقد أدرك كنهه

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) وحد يحده الخافقان ، هو عبارة عن المحيط والمعنى لا مرئي [illegible] وهو الذي يحيط بها الخافقان ويحدان

وتواصلت به الأخبار الصحيحة التي ترده لعدم محل ما تحتوي عليه، حتى[1] عرف
حد المغرب وحد الشرق، وكل واحد منهما حقق قد ضرب بينهما وبين غاية
البشر حد محدود لن يتعداه[2] إلا الخواص منهم المكتسبون منة من الله تعالى للبشر
بالفطرة[3]. وقد شاهدها الأندلس في عين حرارة في حوالي عين الجوال الواقعة
إذ هدى إليها الناس فتطهروا بها وشربوا من مائها سرت في جوانحه منة مستدعة
تقوى بها على قطع تلك المهامه، وهو يغترس في البحر المحيط وهو يكابده حتى وقف به
على هذه الجبال التي شاهدها في ذي القرنين، وشرح هذه العين فيما سيكون قد تقدم
من الصفات العجيبة، وهيئة عجيبة لا يستطيع عبور الشارع في كل سنة إلى أحد منهما
إلا من خاصة وأخص عنه تقضي في قضاء عن محدود قد شحن وفرض له أول
شيء عين حرارة عند مهبّ على الفرع[4] من الغصن منها حتى على ما قدر يرتحل
إلى الغرب وقد عبأ الشوهق بما يتعلق حتى يتخلص[5] إلى أحد الحدين متعلم
عنهما، فاستحضر ذو القرنين مصداقه بلاد يأجوج ومأجوج وتقصى المغرب بحراً
كبيراً حامئاً قد سمى في الكتاب الإلهي عين حامئة[6] وإن الشمس تغرب في عينه
وعند هذا البحر من يقين سائر قاب التحديد وجهه لا غير له إلا غرب، ويكون عنده
ولصقة معسكرة على دينه[7] وإنه يتحصل لهذا الوجه الذي يسمه معه[8] فوق فيها حيث

(١) حتى في فيينا وصوفيا: الذي وقد تقدم في ما في شرق صوفيا
(٢) لن يتعداه في فيينا وصوفيا: كله وجعله الله في نفسه وبين ما يعلمه
(٣) بالفطرة في صوفيا
(٤) في بعض النسخ: الغرب وفي الأندلس
(٥) في هذه من هنا مفقود في جميع النسخ عن الخليفة من غير نصب ولا نصب
(٦) في فيينا وصوفيا: وقد تقدم في ما في صوفيا
(٧) في فيينا وصوفيا مشوهة: في ما في صوفيا
في جميع النسخ عن موضع آخر من فيينا وصوفيا: وقد تقدم في ما في صوفيا
(٨) في فيينا وصوفيا: في ما في صوفيا

الشمس بوجوب وأرضه سبحة كل أهلت بعرت ثم فاشى بها آخرون ، يعمرون فيها ويبنون فيها وقد فاه الشجر بين أهل الفتان فى صفه عرت استوت على عمر دين الآخرين وفرضت عليهم الحلاء تنتهى فرزا ، فلا تستحص إلا حرا[1] وهذا ديدنهم[2] لا يفترون وقد تطوق هذ الإقليم كل حيوان وسات لكنهم قد استعرت به ورعه وشرس من مدة عشبه عوش تريه من صوه[3] فترى الإنسان فيه قد حمله مسك بهيمة ، بست عنه أنثى من الغنم وكذلك حال كل جنس آخر فهذ إقليم حار جاف سبخ مشحون بالملح والجص والهرج يستعير البهجة من مكان عند وبين هذ الإقليم وإقليمك الذى أجرى[4] سكن واحد هذه الإقليم قد بقى محيط بكل الذى إقليم شبيه به فى أمور[5] منها أنه صدقت سير آهيلا من عرة مواعيين ومنها أنه يستغرق النور من شعب غرب وبين كل قرب إلى كوة النور من مذكور قبله ومن ذلك أنه مرسى قد عدت كان الذى قبله مرسى قواعد هذه الأرض ومستقرها سكان عمره فى هذا الإقليم مستغرة لا مساحة بين وادها محيط وكل أمة صقع محدود لا يظهر عليهم غيرهم[6] علاء وقرب معاشره منا بقعة سكانها أمة صغار خلق خلقت الحركات ومدبها ثمن[7] مدن ونتوها ممتلكة أهلها صغر خلق من هؤلاء وأقل حركات بهجون بسكنة واسكوم

(١) أى ... هذه الأحوال ... فى هذا ... به ...

(٢) أى أعراض ... التعمير ...

(٣) أى أن ... وبسببه ... حصل فى ... فيه ... من ... ، ولا تختص بشكل دون شكل ، ولا قد ... دون ... ولا وضع دون وضع

(٤) يريد ... الأخرى الأنواع ... وبسببه ... حيوانه ... وبإسكنه ... وبإنسان

(٥) أى ... الأخرى ... فيه ... وهو ... وهو ... وبعض ... التاسع ... وهو ... عن ... وهو ... وبسببه ... فيه ... الكون والفساد

(٦) أى ... ، ... ولا ... ... وهو ... الكون والفساد

(٧) أى ... وفى ... ... وبسببه ... كان ... الحجم ... الأرض

والبرجت والطبيعيات وصناعة الدقة والأعمال العجيبة مدهم[١] سبع وعشرون
مملكة أهلها مشتغلون بالصناعة موصوفون بالعفة والعرب مبرؤون من العموم لطاف
التعاطي نزهاء مسكونون من أوائلهم تقوم عليهم امرأة قد تصور على الإحسان والخير
وقد ذكر الشريف عنه ومنهم ثماني مدن[٢]. وعشرون مملكة قد زيد لسكانها
سعة في الجسم وروعة في الحس ومن حضارتهم من معارفهم من بعيد عزيزة احدوى
ومقارنتهم مؤدية ومنهم خمس مدن[٣]. وعشرون مملكة ذوي بأس أمة يفسدون في
الأرض حسب بأنهم عشاق والسفك والاغتيال ومشاهير العرب وهو عكسهم أشقر
معروى بالسكك والنبل والعرب وقد قيل كما يزعم رواة أخبارهم مملكة احدى
MARS المذكور أمرها قد شغلته حدة ومنهم سبع مدن[٤] وعشرون مملكة عظيمة أهلها عدين
في الحمية والعدة والحنكة والقوى وأظهر حبهم للخير إلى كل قطر واعتقاد الشفقة على
كل من دب ودرج ومن المعروف بين من عرفهم وقد حسم حظهم من الجمال
والبهاء ومنهم سبع مدن[٥] وعشرون مملكة كبيرة يسكنها أمة غامضة الفكر مولعة
بالشر في صحبة بالإصلاح ذات مهابة شديد وبأس وقعت طبائعهم على طرق
متهورة بل وحشية سيرة أهل المنكر لا تعجز في العمل ولا تعتمد غير الأنفة في أي
وقدر ومنهم سبع مدن[٦] وعشرون مملكة كبيرة متناحرة لأقصر[٧] كثيرة العدد
شجعة لا يعدلون بالموت فيهم ضعف مفصول من عشر حداً فيهم ثمانية وعشرون
محصناً لا تفرح صفة منهم بل تحظ طبقة إلا دخلا من أمرهم على دورهم فيرعه

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) [illegible]
(٤) [illegible]
(٥) [illegible]
(٦) [illegible]
(٧) [illegible]

إلى خلافها[1] وبين أم المالك التي قصب مسافر إليها وتتردد فيها وفيها مملكة لا يدرك أفقها إلى هذا الحد لا مدن فيها ولا كور ولا قرى إليها من يسكنه مصر[2] وعمارها ورحابيون من الملائكة لا يعرفها البشر ومنها ينزل على من يطلب الأمر والقدر وليس وراءها من الأرض معمور فيهدى إقليمها بها مفصل الأصوات وليس بوت دت الشمس من العمارة التي هي المغرب فإذا جهت منها بقدره مشرق رفع ذلك إقليم لا يعمره بشر ولا جن ولا سحر ولا حجر إذا هو ترجب ويسمى عمر[3] وريح محبوسة وبحر مشئومة ونحوه إلى إقليم بقدر ذلك فيه حيات رديه وأنهار وريح مرسله وغيوم هاطله وحد فيها العقيق والياقوت والجوهر ثمينة ونوعية أحدثها وأنواعها إلا أنه لا ثبت فيه ولا نبات عموره إلى إقليم مشحون بالجلاد ذكره إلى ما فيه من أصناف الحيات حية وشجاعة متنوعة وعيه مشرة بحته ومعرة لا حد فيه من حيه ويصغر من الحيوان وتتعداد إلى إقليم جميع ما سبق ذكره إلى نوع الحيوانات لعجم سكنها وحفها ودوابها ومنوعها ومتولدها إلا أنه لا أنيس فيه وخلص عنه إلى عالمكم هذا وقد دلنا على ما يشبهه عيان وقد قصت بحث مشرق وحدث الشمس بصنع بين قرني الشيطان وبين مشيطان وبين قرن صير وقرن سير[4] ولأمة

(١) أثبت ... وقد قسموا ... غير ... قسما على كل قسم من ... وقد ... وسبعة ... وبين ... والمغرب ... وحدى ... وحد ... كل منها عند ... ، وأبعد ... لا يعلمه ... لا يسكن ...

٢ ... يسكنه ... جميع ... الكواكب

٣ ... يسمى عمر ... وقد ... الأمر المقضى ، وقد ... وحد ... إحدى ... عند ... يقطع ... وتسمى ... لا يسكن ... يقطع ... يسكنه ... الوسطى كلها

(٤) ... يسمى ... وتسمى ... حركة ... وتسمى ... حركة ... يسير ... والوسطى ... يسير ...

لسيرة منها قبيلة فى خلق السمع وفيه فى خلق البهائم[١] وبيتهما شخص
وثم وهو جبل ذات اليسار من المشرق وثم الشياطين التى تطير فى نواحيها ذات
اليمين من مشرق[٢] لا تحصر فى حس من الخلق بل يكاد يختص كل شخص
منها بصيغة نادرة ثم خلق لبس فى خلقين أو ثلاثة أو أربعة كانسان يطير وأفعوان
له رأس حرير ومنها خلق هو خداج من خلق مثل شخص هو نصف إنسان وشخص
هو قرد رجل إنسان وشخص هو كف إنسان أو غير ذلك من الخيول ولا يبعد أن
يكون لهاتين لمحفظة التى ترقم مصورون منقوة من ذلك الإقليم والذى يغلب[٣]
على أمر هذا الإقليم قد يلبس سكاكا جما للعريد[٤] جعلها نصا مناخ مملكته
فهم بخصب من يشهوى من سكان هذا الإقليم ويستشف الأخبار المشهية منه ويسلم
من يشهوى فى قرعى لحمه مرصد بباب الإقليم ومعهم الأسماء فى كتاب مطوى مختوم
لا يطلع عليه القيم بشأنه وعليه أن يوصل جميعه إلى حاجب بعرضه على ملك[٥] وثم
الأسرى فيتكلفهم هذا الحاجب وأمثاله فيستخصهم حربا[٦] آحادا وكلا استأسروا
من عاملكا فصاعدا من الناس والخيول وغيره مستدلا على صورهم مراحا منها وإحداها
إياها . ومن هذين القرينين من يسافر إلى إقليم هذا فيمشى الناس فى الأنفاس حتى
يخلص إلى السوداء من نفوس قرنين الذى فى صورة الساعى من قرينين
الحيوانين فإنه يتربص بالإنسان صروا ذى معتاد عليه فيغره ويزين له سوء العمل
من القتل والمثل والإيحاش والإيذاء فيرى الحور فى النفس ويبعث على الظلم

(١) يشير بهذا إلى القوة الغضبية والقوة الشهوية .
(٢) هذا هو القول المختار .
(٣) يريد به الشيطان الإنسانية .
(٤) هو الجاسوس الحبس .
(٥) يريد بالملك الله وبالباب الموت ويستشف الأخبار معناه يعلم بما يحدث من الأمور .
(٦) الحرب هو الذى يأخذ الأسرى ويسترقهم ويتخذهم عبيدا ، واستأسروا
من عاملكا أى حاكموه وكيف يتصور على الجسم الحاكى معروفا فى القديم من علم النفس

والعشر[1] وأما القرن الآخر منهما فلا يزال يساجل بال الإنسان بتحسين الفحشاء من الفعل والمنكر من العمل والفجور إليه وتشويقه إليه وتحريضه عليه قد ركب ظهر اللجاج واعتمد على الإلحاح حتى يخرجه إليه حرا[2] وأما القرن الطير فربما يسول له التكذيب عما لا يرى ويصور لديه حسن العدة مطبوع ومصنوع ويسود صدر الإنسان أن لا نشأة أخرى ولا عاقبة للدنيا واحسى ولا قيام على منكوت[3] وإن من القرنين لطوائف مختلفة حدود إقليم ورد إقليمكم بعمره ملائكة الأرضية تهدى بهدى الملائكة قد نزعت عن غوايته مدة وقيدت سير الشيطين من وساوسهم فأولئك إذا خالطوا الناس لم يضروهم ولا يضرهم ويحسن مظاهرتهم على طهوره وهى حين وحين[4] ومن حصن واد هذا الإقليم وسن فى قاع ملائكة وسفلى منها بالأرض إقليم سكنته ملائكة أرضيون وإذا هم حصن طبقة دنت سمنة وهى علامة أمره وصفة حديثه دنت سيرة وهى مؤنثة عمله وتحصن مهبط رى أقاليم الجن والإنس هوة وتحصن فى السماء فى وسط من حصنة الكرام والكاتبين منهما[5] وإن لمقعد مرصد تيمن من الأمانة وربه الإنسان[6] ولمقعد مرصد اليسار من الحسنة وربه الكتاب[7] ومن وجدته إن عمور هذا الإقليم سبيل حصن إلى ماوراء السماء حصون فسيح ذرعه حين الأقدمه وهو مسك واحد مطابع قوى حدوده

(١) بشر به [illegible]

(٢) أى [illegible]

(٣) بشر به [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

(٧) فى الإنسان قوى [illegible]

معمور بخدم تملكهم الأعصم عاكفين على العمل المقرب إليه زلفى[1] وهم منه بمرأى لا تحسب دعة بهم أو فرم أو عصة أو ظلم أو حسد أو كيد قد وكلوا بعمارة ربض هذه المملكة ووقفوا عليه وهم حاضرة متمدنون يأوون إلى قصور مشيدة وأبنية سرية سقوف في تحن طلسم حتى انعجن ما لا يشاكل كل طبقة بقيمكم[2] وبنيه لأحد من الرجال والناقوت وسائر ما يستنفد أمد بلائه وقد أمن هم في أعمارهم وأنسي في حياتهم فلا يحزنون دون أبعد الآماد ويزينهم عمارة ربض ضاحيين وعند هؤلاء أمة شد احتلاطا عملكهم مصروف على خدمة المحسن الملون وقد ضنوا فيه بتبذلوا بالاعتهان[3] وتخصصوا للغربي ومكنوا من رموق مجلس الأعلى والوقوف حوله وسعوا بالنظر إلى وجه سيدهم وصلا لا انفصال فيه وحلوا تحية البطف في الشمائل والحسن والتذلف في الأدهال والنهية في الإشارات والرواء الباهر والحسن الرائع والهيئة البارعة وضرب كل واحد منهم حد محدود بمقدمه معلوم ودرجة معروضة لا يتدرع فيها ولا تشارك فكل من عداه يرتفع عنه أو يسمح بعد القصور دونه وأدناهم منزلة من الملك واحد هو أخوه وهم أولاده وحفدته[4] وعنه يصدر إليهم حظ الملك ومرسومه ومن غرائب أحواله أن صاحبه لا يسمح منهم إلى الشيب والهرم وأن الوالد منهم وإن كان قد مدة فهو أسبع منه وأشب بهجة وكلهم مسحورون قد كموا الاكتفاء وأنت أبعدهم في ذلك مذهبا ومن عراه إلى عرق فقد نمى[5] ومن ضمن الوفاء بمدحه فقد هذى قد بانت قدر موصوف عن وصفه وحادت عن سبيله

---

(١) [illegible]

(٢) أي بقيمة هو مجردة من مادة [illegible]

(٣) أشار به إلى [illegible]

(٤) يريد به [illegible]

(٥) يشير بهذا إلى [illegible] عن حق

الأمثال فلا يستطيع صاحبها إلا بتدبير أعضاء بل كله لحسنه وجه وبجوده يد[1] يعني حسنه أثر كل حسن ويحقر كرمه نفسه كل كرم ومتى عم بنعمه أحداً من الخلق حول بساطه نعم المدهش طرفه فلك حسيراً يكاد بصره يختطف قبل النظر إليه وكان حسنه حجاب حسنه وكان طيوره سبب ظهوره وكان تحجبه سبب خفائه كالشمس ما احتجبت يسيراً لاستعلت كثيراً فما أعجب في التجلي احتجبت وكان نورها حجاب نورها وبين هذه الثلاث مصلح على ذوي البصائر لا يقبض عليهم بتلقائه وإنما يلوحون من ذوي قواهم دون ملاحظته وإنه سبحانه فاض واسع البر عمر سائل حتى الفقراء عام العطاء من شاهد أثراً من جوده وقف عليه حصه ولا لفته عنه غيره وما هجر إليه أفراد من الناس فيلقاهم من فوضى عطاياه وشمولهم احتشد مسرعين إليهم فوجدوا انقلبوا من عنده أغنياء وهم مكرهون.

فأي شيخ حتى من نقص فلا هوادة فيه فحاسبك نفسه إن لم تكن في هذه شغل عنك وفي سنة أحمد به والسلام.

تمت رسالة حي بن يقظان

بحمد الله ومنه

وصلاته على محمد خير خلقه

وعلى آله وصحبه.

(١) أي أنه لا ينقسم على وجه من وجوهه بل هو واحد ولا متعدد له وجه واحد من كل جهة

# رسالة حي بن يقظان

عدنان طعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العظيم الأعظم القديم الأقدم العليم الأعلم الحكيم الأحكم الرحيم الأرحم الكريم الأكرم العلم الأحلم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ أحمده على فواضل النعماء وأشكره على تتابع الآلاء وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صاحب الخلق الطاهر والمعجز الباهر والبرهان الظاهر والسيف الشاهر صلوات الله عليه وسلامه وعلى آله وأصحابه أولي الهمم العظام وذوي المناقب والمكارم وعلى جميع الصحابة ومن تبعهم إلى يوم الدين وسلم تسليما

أما بعد أيها الأخ الكريم الصفي الحميم — سحائب الله تهمي على الأدي وسعدك السعد الذي لا يشقى — فإنك كتبت إلي كتابا مكتوبا تشكو فيه من أمر أحكمه مشرقة[1] إلى ذكره الشيخ (الإمام) رئيس أبو علي بن سينا وغيره من أئمة الحق الذي لا يجحده فيه عاقل واحد في العالم

## وصف الحالة التي شعر بها ابن طفيل

وقد جرى لي مع سؤالك حضر شيء قضى لي — والحمد لله إلى مشاهدة حال لم أشهدها قبل وانتهى بي إلى مسمع هو من الله بحيث لا يبلغه لسان ولا يقوم به بيان

[1] [illegible]

لأنه من طور غير طورهم وعالم غير عالمهم . غير أن هذه الحال لما لها من البهجة والسرور واللذة والحبور[1] لا يستطيع من وصل إليها وانتهى إلى حد من حدودها أن يكتم أمرها أو يخفي سرها بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل وإن كان من لم تحدثه نفسه فإنه يعبر تعبيرا حتى إن بعضهم قال في هذه الحال « سبحاني ما أعظم شأني[2] » . وقال غيره « أنا الحق » وقال غيره « ليس في الجبة إلا الله » .

وقد الشيخ أبو حامد الغزالي ( رحمة الله عليه ) فصل متمثلا عند وصوله إلى هذا الحال بهذا البيت

فكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وإنما أدخله المعارف وحدثته النفوس[3]

* * *

واعلم إلى قوله في بكر من الصنع لتعلل كلامه في صفة الاتحاد فإنه يقول « إذا فهم معنى المقصود من كلمة ذلك ، فهو عندك أنه لا يمكن أن يكون معدوم من المعدوم فتحصله في كلمة وحصل منصوره فهم ذلك معنى في نفسه يرى نفسه فيها عدما جميعا فقده مع اعتقادات أخر ليست هيولانية وهي أجل من أن تنسب إلى أحدية الطبيعة بل هي خلو من خلو السماء حقيقة أن يقال لها خلو إلهية يهب الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده .

(١) يريد بذلك ما يصل إليه [illegible]

(٢) يعني بذلك أن يريد بسبحاني ... [illegible]

من قول من قال [illegible]

قول [illegible]

وكلمة [illegible] عقيدة وحدة الوجود

(٣) هذا بيت عربي كتبه بعض [illegible] ولا يعرف [illegible] قائله ولا حقيقة معناه

وهذه الرتبة التي أشار إليها ولكن ينتهي إليها طريق العلم النظري والبحث الفكري . ولا يملك أن يعلمها ولا يحيط .

• • •

وأما الرتبة التي أشار إليها عن الولاية فهي عجيبة وإن كانت يلوح بمعنى أنه لا يكشف فيها أمر على خلاف ما يكشف في هذه ولا يتصور زيادة الوضوح ومشاهدتها أمر لا يتسع قوة إلا على الحد الذي لا مزيد في الأمر الجمهور به[1] ولا في الاصطلاحات الخاصة شيء يدل على شيء الذي يشاهد به ذلك النوع من المشاهدة . وهذه الحال التي ذكرها . وحركت سؤالك إلى ذوق منها هي من جملة الأحوال التي نبه عليها الشيخ أبو علي حيث يقول « ثم إذا لمعت به لائحة الإرادة والرياضة حدثت له حسنات من اطلاع على الحق لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه ثم إنه لكثرة عليه هذه العوائق إذا معن في الانبساط تمرن به يوشك في ذلك حتى يعيش في غير الارتياض فيكاد يرى الحق في كل شيء . ثم إنه يسمو به الرياضة منتهى لقلب وقته سكينة » ، فتصير الخطوف عادة ويوميض شهاباً بعد وخصوص به مقامه مستقرة كأنه صحبة مستمرة[2] . إلى ما وصفه من تدريج الطالب وانتهائه إلى أصل بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذي بها شطر الحق . وحينئذ يسر عليه بدايات العلي . ويفرح نفسه لما (يرى) بها من أثر الحق ويكون له في هذه الرتبة نظر إلى حق ونظر إلى نفسه وهو بعد متردد ثم إنه يغيب عن نفسه فيحظ حظ القدس فقط وإن حظ نفسه فمن حيث هي لاحظة وهناك تحق الوصول[3] » .

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

هذه الأحوال التي وصفها إنما أراد بها أن تكون له ذوقاً لأعلى سبيل الإدراك النظري المسرح بالقاييس وتقديم المقدمات وانتاج النتائج و إن أردت مثالاً يظهر لك به الفرق بين إدراك هذه الطائفة و إدراك سواهم فتخيل حال من خلق مكفوف البصر إلا أنه جيد الفطرة قوى الحدس ثابت الخطو مسدد الخاطر فشد مد كان في بلدة من البلدان وما زال يتعرف أشخاص الناس بها وكثيراً من أنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها بما له من ضروب الإدراكات الأخر حتى صار يمشي في تلك المدينة غير دليل ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه بأول وهلة .

وكان يعرف الألوان وحدها بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها . ثم إنه بعد أن حصل على هذه المرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى في تلك المدينة كلها وعرف بها فلم يجد أمراً على خلاف ما كان يعتقده ولا أنكر من أمرها شيئاً . وصادف الألوان على نحو صدق الرسوم عنده التي كانت اكتسبت له بها غير أنه في ذلك كله حدث له ألوان عظيمة . أحدها تابع للآخر وهي . . . وبداءة الوضوح والانسلاخ وابتداء العظيمة فمن البصريين من ذهبوا إلى ظهور الولاية هي جملة الأعمى الأولى والألوان التي في هذه الحال معلومة بشروح أسمائها هي تلك الألوان التي قال أبو بكر بها أحل من أن تنسب إلى أحد فيستعيد بها الله من يشاء من عباده . وحال البصير الذي وصفنا في ظهور الولاية وسمحها الله تعالى ذلك الشيء الذي قد إنه ليس قوة إلا على سبيل مجاز هي الجملة الثانية .

وقد خرج بنا الكلام إلى غير ما كنا بسبيله بسؤالك بعض حدوث نحسب ما دعت ضرورة إليه وظهر بعد القول في مضمونك ، يتعذر أحد الأمرين

١ — إما أن تقول عن رأيك أنك لست هذه الولاية والذوق والحصول في طور الولاية فهذا لا يمكن بسببه على حقيقة أمره في كتب ومتى حاول أحد ذلك وكلفه بالقول أو الكتب استحالت حقيقته وصار من قسم القسم الآخر النظري لأنه إذا كتب الحروف والأصوات وقرأ من غير مشاهدة ، يقف على ما كان عليه وجه ولا

حال واختلفت العبارات فيه اختلافاً كثيراً وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم وظن بآخرين أن أقدامهم زلت وهي لم تزل وإنما كان كذلك لأنه أمر لا نهاية له في حضرة متسعة الأكناف ، محيطة غير محاط بها[1]

٢ والغرض الثاني من الغرضين اللذين قدمنا إن سؤالك عن يتعدى أحدهما هو أن تتقصى التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر . وهذا — أكرمك الله ولايته — شيء يحتمل أن يوضع في الكتب وتصرف به العبارات ولكنه أعده من الكبريت الأحمر ولا سيما في هذا الصقع[2] الذي نحن فيه لأن من العربة في حد لا يظفر بالمسير منه إلا مفرد بعد الفرد — ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس إلا رمزاً فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه ولا تصح من جملة التي وصلت إليها في كتب منصوصة بيني وبين حر[3] وفي كتب شتى[4] التي بهذا الغرض الذي أريده ولا أعلم أحداً من أهل الأندلس كتب فيه شيئاً قبلي كما ذكرت وذلك أن من نشأ بالأندلس من أهل العصر الذي قبل شيوخ نحو متسق والمنسلخ فيها قصروا أعمارهم بعلوم التعاليم ونحو فيها منه رفعاً وما يقدرون على أكثر من ذلك ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم شيئاً من علم المنطق فقصروا فيه وما قصر فيهم إلى حقيقته المكسب فكان فيهم من قال

نرجح في أن علوم [illegible] إن قصدنا من فرد

(١) [illegible]

(٢) يريد [illegible]

(٣) هو [illegible]

(٤) هو كتاب [illegible]

« حقيقة » يعسر تحصيلها

« و « باطل » تحصيله بعيد

ثم خلف من بعدهم خلف آخر أخذوا منهم بعض وتقربوا إلى الحقيقة . ولم يكن فيهم أثقب ذهناً ولا أصح عقلاً ولا أصدق روية من أبي بكر بن الصائغ . غير أنه شغلته الدنيا حتى احترمته المنية قبل ظهور حرائق علمه وبث حقيقة حكمته . وأكثر ما يوجد له من التصانيف إنما هي كاملة ومحرومة من أخواتها ككتابه « في النفس » و « تدبير المتوحد » وما كتبه في المنطق وعلم الفلسفة وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختصرة وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر أن نعني بمقصود بعضه في « رسالة الاتصال » فليس يعطيه ذلك القول عطاء سهلاً إلا بعد عسر واستكراه شديد ، وأن تركيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الأكمل واسع له وقت مال شديدها فهذا حكم ما وصل إلينا من علم هذا الرجل وحق لمثله أن يضيق شحه

وما من كان معاصراً له ممن يوصف بأنه في مثل درجته فيما نرتبه به .

وأما من جاء بعدهم من المتأخرين فإنهم بعد في حد البعيد والوقوف على غير كامل وممن لم يصل إلى حقيقة أمره

وأما ما وصل إلينا من كتب أبي بكر فأكثرها في المنطق وما ورد منها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك . . . . . فقد أثبت في كتابه « المثل الفاضلة » بقاء النفوس الشريرة بعد موت البدن لأنه لا نهاية لها وبقاء لا نهاية له ثم صرح في « السياسة المدنية » بأنها مضمحلة وصائرة إلى العدم وأنه لا بقاء إلا للنفوس الفاضلة الكاملة ثم وصف في شرح « كتاب الأخلاق » شيئاً من أمر السعادة الإنسانية وأنها إنما تكون في هذه الحياة التي في هذه الدار ثم قال عقب ذلك كلاماً هذا معناه « وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات مخاطر » فهذا قد أيس الخلق جميعاً من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم وهذه رتبة لا تتمنى وغيره ليس بعدهم خير هذا مع ما صرح به

من سوء معتقده فى النبوة وأنها برعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيل الفلسفة عليها إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى إيرادها .

* * *

وأما كتاب « أرسطوطاليس » فقد تكفل الشيخ أبو على بتحرير عما فيه وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته فى « كتاب الشفاء » وصرح فى أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك وأنه إنما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وأن من أراد الحق الذى لا محيص فيه فعليه بكتبه فى « الفلسفة المشرقية » ومن عنى بقراءة كتاب « الشفاء » وتدبره كتب أرسطوطاليس طالعه فى أكثر الأمور أنها تتفق وإن كان فى كتاب « الشفاء » أشبع البحث عن أرسطو وإذا أحد جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب « الشفاء » على ظاهره دون أن يتعطن سره وباطنه ، وصل به إلى الكمال حسب ما عنيه الشيخ أبو على فى كتاب « الشفاء »

* *

وأما كتب الشيخ أبى حامد الغزالى فهى حسب ما لحظه الجمهور ترتد فى موضع ونحل فى آخر وتكفر الشيخ ثم تتحلها ثم إنه من جملة ما كفر به الفلاسفة فى « كتاب التهافت » تكفيرهم عشر مسائل وإنهم القائلون بقدم العالم خاصة . ثم قال فى أول كتاب « ميزان العمل » « إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع » ثم قال فى كتاب « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » « إن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وإن أمره يتوقف على ذلك مدة طويلة من البحث » وفى كتبه من هذا النوع كثير يتبرأ من تصفحها ومن النظر فيها وقد عبر عن هذا الفعل فى آخر كتاب « ميزان العمل » حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام :

١ — رأى شاركه فيه الجمهور فهم عليه .

٢ — ورأى يكون بحسب ما لحظ به كل سائل ومسترشد

٣ — ورأى بكون بين الإنسان وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده .

ثم قال بعد ذلك « ولو لم يكن في هذه إلا ما يشككك في عقائد الموروث لكفى بذلك نقصاً فيمن لم يشك فيما يضره ويضر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة . ثم نظم بعد ذلك :

حتى متى ترد ودي وقد سمعت به ... في صفة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة عظيمة وكتاب ما هو زور وبدعة لا ينتفع به إلا من وقف عليه ولم يعلم نفسه أو لم يعلم منه شيء أن من كل معلم مهما دنت الفطرة فيه يكفي نفسه بشيء . وقد ذكر في « كتاب الجوهر » أن له كتباً مضنوناً بها على غير أهلها وأنه سماها صريح الحق

وما يضل بني آدم في عقولهم شيء من وصمت كتب زعم بعض الناس أنها هي تلك المضنون بها ، ليس الأمر كذلك . وتلك الكتب هي كتاب « المعارف العقلية » وكتاب « الفتوح والتسوية » و « مسائل مجموعة » وسواها .

وهذه الكتب وإن كان فيها إشارات فيها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف على ما هو مبثوث في كتبه المشهورة .

وقد يوجد في كتاب « المقصد الأسنى » ما هو أعمق من ذلك . وقد صرح هو في كتاب « المقصد الأسنى » بأن مضنوناً به فيه من ذلك أن هذه الكتب الواضحة ليست هي المضنون بها

وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع في آخر « كتاب مشكاة » أمراً عظيماً وقعه في مهواة لا محيص له منها وهو قوله بعد ذكر أصناف المحجوبين بالأنوار ثم انتقاله إلى ذكر الواصلين . « فهم وقفوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفة ما في الوجود إلا هذه الصفة فأراد أن يعلمه من ذلك أنه يعتقد أن الأول الحق

سبحانه في دائه كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرا.

ولا شك عندي في أن الشيخ أحمد بن سعد السعداوي الفاسي ووصل تلك مواصل الشريعة المقدسة.

لكن كتبه المصون به المشتمله على علوم المكاشفه لم تصل إلينا.

• •

وأنا بحمد الله نحن أحق بدي انتهى إليه وكل منهما من العلم بجمع كلامه وكلام الشيخ أبي علي وصرف بعضهم إلى بعض وإضافة ذلك إلى الآراء التي سمعت في زماننا هذا وهيج به قوم من متحلي الفلسفة حتى استعدنا الحق أولا طريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير الذي هذه وحينئذ أنفسنا أهلا لوضع كلام يؤثر عنا ويجب علينا أن تكون أيها السائل ممن تحفظه عنا عندنا وأضعافه على ما لدينا الصحيح ولائك وكاه صدك.

غير أنا نخشى أن يكون بعض ما سبق إليه من ذلك من قبل أن حكم صدقها معك لما عندك ذلك شيئا كثيرا من أمر تقدمي محمل، هذا إن كنت صدقت بحسب المودة والمؤاخاة لا تعني أنه يستحق أن يقبل قوله.

ونحن لا نرضى لك هذه بديله ونحن لا نصح لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك إلا ما هو أعلى منها وهي أن تكون بمنزلة فضلا عن أن تكون على الدرجات وإنا نريد أن نحملك على مسالك التي قد عنه عنهم سلوكك وسيحبك في البحر الذي قد عبرناه أولا حتى يفضي بك إلى ما أفضى بنا إليه فتشهد من ذلك ما شاهدناه وتتحقق بصيرة عينك كل ما تحققناه ونسعى على بعد معرفتك قدر وسعه

وهذا يحتاج إلى مقدار معلوم من زمان غير يسير وفراغ من الشواغل وإقبال بالهمة كلها على هذا الفن فإن صدق منك هذا العزم وصحت منك المشيرة في هذا المطلب فستحمد عند الصبح مسراك ونيل بركة مسعاك وتكون قد أرضيت ربك وأرضيتنا وأبلغت حيث نريده من أملك ونصبح به سعيك وكدك. وأرجو أن

أصل من السمك بك على أقصد الطريق وآمنها من العوائل والآفات وإن عرضت الآن إلى لمحة يسيرة على سبيل التشويق والحث على دخول الطريق فأنا واصف لك « قصة حي بن يقظان » « وأسال وسلامان » اللذين سماهما الشيخ أبو علي . ففي « قصصهم عبرة لأولي الألباب » و « ذكرى من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

ذكر سعد الشيخ — رضي الله عنهم — إن جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء وهي الجزيرة التي تولد بها الإنسان من غير أم ولا أب وبها شجر شمر سماه وهي التي ذكر مسعودي أنها جزيرة الواقوق لأن تلك الجزيرة تعدل بقاع الأرض هواء وأنها شروق نور الأعلى عليها استعداد وإن كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور علمائه وكبار أصحابه فإنهم يزعمون أن أعدل ما في المعمورة الإقليم الرابع وإن كانوا قالوا ذلك لأنه صح عندهم أنه مبني على خط الاستواء عمارة ما مع من توابع الأرضية فتوهموا أن الإقليم الرابع أعدل بقاع الأرض الباقية وحقه وإن كانوا إنما أرادوا بذلك أن ما على خط الاستواء شديد الحر . كما هي تصرح به أكثرهم فهو خطأ عوه البرهان على خلافه وذلك أنه قد بان في العلوم الطبيعية أنه لا يمكن أن يكون حر ما إلا بحركة أو بملاقاة لأجسام حارة والإضافة وبين فيها أيضاً أن شمس نفسها غير حارة ولا يمكنه شيء من هذه الأمور الثلاثة وقد بين فيها أيضاً أن الأجسام التي تقبل الإسخان ثم تقبل هي الأجسام الصقيلة غير الشفافة وبينا في قبول تلك الأجسام الكثيفة غير الصقيلة ثم الأجسام الشفافة التي لا شيء فيها من الكثافة والصقل انصبوه حقه وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو علي خاصة وما يذكره من عنده فيما ثم ومحت هذه المقدمات فالذي عليه أن الشمس لا تسخن الأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجساماً أخر تشبهها لأن الشمس في ذاتها غير حارة ولا الأرض تصير سخنة بالحركة لأنها ساكنة وعلى حالة واحدة في وقت شروق الشمس

عنه وفى وقت معين عنه . وأحوجه فى التسخين والتبريد ظاهرة الاختلاف للحس فى هذين الوقتين . ولا الشمس أيضا تسخن الهواء أولا ثم تسخن بعد ذلك الأرض بتوسط تسخينها الهواء . وكيف تكون ذلك وبحسب كل ما قرب من الهواء من الأرض فى وقت آخر أسخن كثيرا من الهواء الذى يعلوه على ما فيتبين أن تسخين الشمس للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير فإن الحرارة مع الضوء أبدا حتى أن الضوء إذا وقع فى مرآة محرقة أشعل ما وجده وقد تبين فى علم المناظر الهيئى القطعية أن الشمس كروية الشكل وأن الأرض كذلك وأن الشمس أعظم من الأرض كثيرا وأن الذى يضيء من الأرض بالشمس أبدا هو أعظم من نصفها وأن هذا النصف المضيء من الأرض فى كل وقت أبدا يكون نصفا فى وسطه لأنه أبعد المواضع من النقطة عند محيط الدائرة ولأنه يتبين من الشمس أجزاء أكثر وما قرب من المحيط كان أقل ضوءا حتى ينتهى إلى النقطة عند محيط الدائرة التى بين ما فضاء موقعه من الأرض فقط وبعد ذلك الموضع وسط دائرة النصف إذا كانت الشمس على سمت رؤوس ذلك الموضع وحينئذ يكون حرارة فى ذلك الموضع أشد ما تكون فإن كان الموضع مما تبعد الشمس فيه عن سمت رؤوس أهله كل شديد البعد جدا وإن كان مما تقرب منه سمت كل شديد حره وقد تنتهى عن هيئة أن تضع الأرض التى على خط الاستواء لأن الشمس تكون رؤوس أهله سوى مرتين فى العام عند حلول الشمس الحمل وعند حلول الشمس الميزان . وهى فى سائر أيام السنة أشهر حلول منها وسنة أشهر شمالا منه . فتبين عندئذ حر مفرط وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة

وهذا القول يتضح إلى أن أكثر من هذا لا يتبين إلا بحس تجربة وبتشبيهات عليه لأنه من الأمور التى تشتبه بصحة ما ذكر من تحرير بعد الإنسان تلك البقعة من غير أم ولا أب شبهة من ثبت الحكم وحرم القضية بأن ما حى بن يقظان هو من جملة من يكون فى تلك البقعة من غير أم ولا أب ومنهم من أنكر ذلك وروى من أفرد جزءا بقصته عندك فحص .

إنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت . ذات جمال وحسن باهر فخطبها وسعها الازواج إذا لم يجد لها كفؤا . وكان له قريب يسعى بقطاع الطرق على وجه حائر في مذهبهم المشهور في زمنهم ثم إنها حملت منه فوضعت طفلا فما حدثت أن يفتضح أمرها ويكشف سرها وضعته في تابوت أحكمت رمه بعد أن أرضعه من ثديها وخرجت به في أول الليل في خفية من جميع وتفاتها إلى ساحل البحر وقلبها يحترق لصباة به وحوفا عليه ثم ألقاه وودعه ، وقالت :

« اللهم إنك قد علمت هذا الفعل وما كان شيئاً مذكوراً وورقته في صفحات الأحشاء وتكفلت به حتى تم واستوى وأنت قد سمعته بلى فطمته ، وحوت له فصالك خوفاً من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد . فخصه به ولا سيما يا أرحم الراحمين »

ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جرى الماء بقوة المد فاحتمله من يليه إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها .

وكان المد يمتد في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام . فأوصله الماء بقوته إلى أجمة منتهى الشجر عدة لترة مستورة عن الريح والمطر محجوبة عن الشمس تزور عنه إذا طلعت وتقرضه إذا غربت . ثم أخذ الماء في النقص وأخر عن التابوت الذي فيه الطفل وفي الوقت في ذلك الموضع وعلت الرمل مهبوب الرياح ، وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الأجمة على التابوت ، وردمت مدخل الماء إلى تلك الأجمة . فكان بعد لا يتهيأ به . وكانت مسامير التابوت قد قلعت وأبوابه قد اضطربت عند رمي الماء به في تلك الأجمة . فعند اشتداد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته في أذن طيبة فمدت طلاها[1] خرج من كنسه لحمله العقاب فلما سمعت الصوت صنته ولدها فتبعت الصوت وهي تتحيل طلاها حتى وصلت إلى التابوت فحصحصت عنه بأطلافها وهو يبكي ويئن من داخله حتى طار

(١) [illegible]

عن التابوت لوح من أعلاه . فحثت الطينة وحشت عليه ورممت به وألقمته حصبة وأرونه بيتاً سائغاً . وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى .

* * *

هذا ما كان من ابتداء أمره عند من ينكر التولد .

ونحن نصف هاهنا كيف تربى وكيف انتقل في أحواله حتى بلغ السبع العظيم .

وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فإنهم قالوا إن بطناً من أرض الجزيرة تحمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحر والبرد والرطب باليابس فتراخى بكاؤها ونعدى في الهوى وكانت هذه الطينة متحمرة كثيرة جداً وكان بعضها يفصل بعضاً في اعتدال مزاج وتهيؤ تكون الأشباح . وكان أوسط منها أعدل ما فيه وأتمه مشابهة لمزاج الإنسان فمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه فقاقيع الطلي شدة لزوجتها وحدث في أوسط منها وجه وبداءة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق كمثله لحم عليه هواء في ما بينه من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل قد تبين أن هذا الروح دائم الفيض من عند الله عز وجل وأنه تعريه و الشمس الذي هو دائم الفيض على العالم .

ثم الأجسام ما لا يستضيء به وهو هواء الشفاف جداً ومنها ما يستضيء به بعض استضاءة وهي الأجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف في قبول الضياء وتخلف بحسب ذلك ألوانها ومنها ما يستضيء به غاية الاستضاءة وهي الأجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها .

فإذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدثت فيها النار لانعراف الضياء . وكذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى فيفيض أبداً على جميع الموجودات فيها ما لا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد وهو الجمادات التي لا حياة لها وهذه تجربة الهواء

فى شكل المتقدم ومنها ما يظهر أثره فيه وهى أنواع لست بحسب استعداداتها ، وهذه هذه الأجسام تكيفه فى الشكل المتقدم ومنها ما يظهر أثره فيه صوراً كثيرة وهى أنواع الحيوان وهذه تصفيه فى الشكل المتقدم

ومن هذه الأجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله ضوء الشمس أنه يحكى صورة الشمس ومثالها وكذلك أشخاص من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكى الروح ويصور صورته وهذا الإنسان خصه الله الإبداء بقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » فمن قويت فيه هذه الصورة حتى يحاكى جميع الصور فى خلقه وهى فى واحد وخرق سبحات وجهه كل ما أدركه كان عنده مرآة تحكيه على نفسه لحقه سهو وهذا لا يكون إلا للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهذا كله مبين فى موضعه « الله به » فيرجع إلى شرح ما حكوه من وصف ذلك التخلق .

فنقول وبالله نستعين هذه روح لطيفة غريزة خصصت له جميع القوى وسخرت له وسخرت لأمر الله تعالى فى كل فعل فتكون بإزاء تلك القوة بقعة أخرى منقسمة ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة ومسامك دقيقة وامتلأت بمثل ذلك الهواء الذى امتلأت منه القرارة الأولى إلا أنه أصفى منه .

وتكون فى هذه البطون الثلاثة منقسمة من واحدة طائفة من تلك القوى التى خصصت به ووكلت بحراسته والذب عنه . وأنبهه ما نصفيها من دقيق الأشياء وحبيب إلى روح الأول متعلق بالقرارة الأولى

وتكون أنصبة إلى هذه القرارة من أخيه المقدمة للقرارة الثانية بقعة ثالثة ممدودة حسب هوائية إلا أنه أخص من الأولين وتكون فى هذه القرارة فريق من تلك القوى الخادمة ووكلت بحفظ والذب عنه فحالات هذه القرارة الأولى والثانية والثالثة

أول ما تخلق من تلك الطبلة المتحمرة الكبرى على الترتيب الذى ذكرناه .

واحتاج بعضها إلى بعض فالأولى منها حاجتها إلى أخريين حاجة استخدام وتسخير والأخريان حاجتهما إلى الأولى حاجة المرؤوس إلى الرئيس والمدبَّر إلى المدبِّر وكلاهما لم يتخلق بعدهما من الأعضاء رئيس لا مرؤوس .

وأحدها وهو الذى أتم رئاسة من الثلث فالأول منها لما تعلق به الروح واشتعلت حرارته شكل شكل الدر الصورى وتشكل أعنّ الجسم المحيط المحدق به على شكله وتكون لما صلب وصار عليه غلاف صفاق يحفظه

وسمى العضو كله قلباً واحتاج ما يتبع الحرارة من التحليل وإلقاء الفضولات إلى شىء يمده ويعدوه ويحفظ ما يحتاج منه على الدوام ولا يبطل عدوه وحتاج أيضاً إلى أن يحس عن ملائمه فيجتذبه وعن مجانبه فيدفعه . فكمل به العضو الحار منه بالقوى التى أصلها منه لمحاجته إلى واحد وكمل به العضو الآخر لمحاجته الأخرى

وكان المتكمل بالحس هو « الدماغ » والمتكمل بالعدو هو « الكبد » واحتاج كل واحد من هذين إلى أن يمده بحرارته وبالقوى المخصوصة به التى أصلها منه . فانبسطت منهما تلك كله فمنها عروق تضع من بعض ما يحتاج إليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق .

ثم ما زالوا يصفون الجملة كلها وأعضاءها جميعاً على حسب ما وصفه المتقدمون فى خلقة الجنين فى رحم أمه إلى أن تكمل خلقه وتمت أعضاؤه وحصل فى حد خروج الجنين من البطن واستووا فى وصف كل ذلك بقيت الطبلة الكبيرة وأنها كانت قد تهيأت لأن يتحلل منها كل ما يحتاج إليه فى خلق الإنسان من الأعشية المحيطة بجنة بدنه وغيره فلما كمل اشتقت منه تلك الأعشية بشبه محيص وتصدع فى الطبلة بحسب كل واحد منها .

ثم استغاث ذلك الطفل عند فقده مدة غيابه واشتداد جوعه فسمته « طيبة » فقدت طلاها .

ثم استوى ما وضعه هؤلاء عند هذا الوضع وما وصفته الطائفة الأولى فى معنى التربية فى هذا الحيوان . إن الصبية التى كفلت به وقت حضانة ومرعى الشياه ، فكثر لحمه ودر لبنه حتى قامت بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام. وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة المرعى . وألف الطفل تلك الطيبة حتى كان يحيث إذا هى أبطأت عنه اشتد بكاؤه فعدرت إليه

ولم يكن ذلك الحيوان شيء من سباع الغابة فترى الطفل وقد عدى بين تلك الصبية إلى أن تمر به حولان ويدرج فى مشى وأنس[1] فكان يتبع تلك الطيبة وكانت هى ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما يسقط من ثمر يجده الصبية ، وما كان منها يصعب عليه لكثرة كسرته له بطواحينها ومتى عاد إلى اللبن أرضعه ومتى ضوى إلى مناهلها وردته ومتى ضحى[2] ظله ومتى حضر[3] غذاه وإذا حن أنين صرفته إلى مكانه الأول وحبسته نفسها ورعش كان هناك ما يلهيه به استعانت أولا فى وقت وضع الطفل فيه وكان فى عدوها ورواحها قد أعهد ربه يسرح ويعشى وتسرح معه حيث تسرح .

فإذا الطفل مع الضحى على ذلك حتى يحكى نعيبها وصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة تعقله ما يريده وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الصبية فى الاسترسال والاسترخاء والاسترواح إذ يحاولها فى هذه الأحوال

(١) أى ظهرت آثاره
(٢) أى حرها
(٣) برد

المختلفة أصوات مختلفة . فسمعه الوحوش وألفه ولم ينكره ولا أنكره . فاستأنست في نفسه أمثلة الأشياء بعد معرفتها عن مشاهدة حدثت له نزوع إلى بعضها وكراهية لبعض .

وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار و(أنواع) الريش وكان يرى منها من سرعة العدو وقوة البطش وما لها من الأسلحة معدة للمدافعة عن نفسها مثل القرون والأنياب والمخاوير و(شباصى)[1] والحوافر .

ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العري وعدم السلاح وضعف العدو ، وقلة البطش عندما كان يدركه الوحوش فيأكل ويفترسه دونه وتعلمه عنها فلا يستطيع مدافعة عن نفسه ولا نضال عن شيء منه وكان يرى أشباهه من أولاد الضأن قد بعث لها قرون ، حدثت له مكن وصارت قوية عند ضعفه في العدو . وهو يرى نفسه شيئاً من ذلك كله فكان يفكر في ذلك ولا يدري ما سببه . وكان ينظر إلى ذوي المخالب والحنك الناقص فلا يجد نفسه شيئاً فيها . وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوان فيراها مستورة ، وأما مخرج أغلظ الفضلتين فالأدبار وأما مخرج أرقهما فالأفواه ومن أشباهه . ولأنه كان أيضاً أخفى قصداً منه فكان ذلك كله يكربه ويسوءه . فاستطال همه في ذلك كله وهو قد غاب سبعة أعوام ولم يكن من ذلك وما قد ستره به نفسه عند من أوراق الشجر العريضة شيئاً حمل نفسه حمله وعمل من الحوض والخيط (شبه) حزاماً على وسطه ، علق به تلك الأوراق ، فلم يبث إلا يسيراً حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه فلم يتجد غيره وتخصف بعضه بعض حذقات مصانعة ورعى كل ذلك أصول نفسه إلا أنه على كل حال قصر مدة واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوى أطرافها وعدل منها وكان يبش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقوم القوي منها فتبل ذلك قدره عند نفسه بعض نبالة

(١) الصياصي شوك الديك وقرن الثور وكل ما يمتنع به

وأى أن ليده فضلا كثيرا على أنيابه إذ كان به بها ستر عورته واتخذ العصى التى يدافع بها عن حوزته ما استعنى به عما زوده من الناب والسلاح الطبيعى .

وفى خلال ذلك تزعزع ثروته على سبع سنين ، وطال به العناء فى تحديد الأوقات التى كان يستر بها

وكان نفسه عند ذلك تزعه إلى اتخاذ ناب من أناب الوحوش الميتة ليعلقه على نفسه إلا أنه كان يرى أحياء الوحوش تحمى ميتها وتفزعه فلا يتأتى له الإقدام على ذلك الفعل إلى أن صادف فى بعض الأيام سبعا ميتا فمشى إلى نيل أحد نابيه واغتنم الفرصة فيه إذ غفر الوحوش عنه فتقدم عليه وقطع حنكيه وقد نفسه كما هى وفتح ريشها وسواها وسلخ عنه سائر جلده ، وقعد على قطعتين فجعل إحداهما على ظهره والأخرى على سرته وما تحتها وعلق الذئب من خلفه وعلق الجانبين على عاتقيه فكسته ذلك ستراً ودفئاً ومهابة فى نفوس جميع الوحوش حتى كانت لا تدنو منه ولا تعارضه .

فصار لا يدرى به شىء منها سوى الضبع التى كانت رصدته وربته فإنها لم تفارقه ولا فارقها إلى أن ماتت وضعفت فكان يزودها من المراعى حيثما وجدها ويجنى لها الثمرات الحلوة ويطعمها

وما زال كذلك وهو يتعهد الضبع ويتوالى إلى أن أدركها الموت فمكثت حركاتها وتخلف عن مطلب جميع أقرانها فعلم أنها قاربت على تلك الحالة فجزع جزعا شديدا وكادت نفسه تفيض أسفا عليها فكان يدنو منها بالصوت الذى كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما قدر عليه فلا يرى منها عند ذلك حركة ولا سميعا .

فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بهما أثر صحة وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى شيئا منها تأتى . فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيرتاح لها فترجع إلى ما كانت عليه ، فلم يتهيأ له شىء من ذلك ولا استطاعه وكان

الذى أرشده لهذا الرأى ما كان قد اعتاده فى نفسه قبل ذلك . لأنه كان يرى أنه أعمض عينيه أو سدهما بشىء لا يبصر شيئاً حتى يزول ذلك العائق وكذلك كان يرى أنه إذا أدخل أصبعيه فى أذنيه سدهما لا يسمع شيئاً حتى يزول ذلك العارض وإذا أمسك أنفه بيده لا يشم من روح شيئاً حتى يفتح أنفه . فعلم من أجل ذلك أن جميع ما لها من الإدراكات والأفعال قد تكون قد عوقت بعوائق فإذا زالت تلك العوائق عادت الأفعال .

. .

فلما نظر إلى جميع أعضائه الحواس . قد ترفهت وقامت وهى ترى مع ذلك العطالة قد شملتها وهو يخص من بعضو دون بعض — وقع فى خاطره أن الآفة التى ترى بها إنما هى فى عضو مائع على عين مستكن فى بعض الجسد وأن ذلك العضو لا يعرى عنه فى بعض شىء من هذه الأعضاء الظاهرة فلما وقعت به الآفة عمت بصيرة وشملت العطالة وطمع بأنه لو عثر على ذلك العضو وأزيل عنه ما يرى به لاستقامت أحواله وقاس على سائر ما فقد من قبله ، وعادت الأفعال إلى ما كانت عليه .

وكان قد شاهد قبل ذلك فى أسباب كثيرة من وحوش وسباع أن جميع أعضائها متساوية لا خواص فيها إلا بحسب وضع وبعض قوة فى بعضها أن العضو الذى تلك الصفة من بعضو أحد هذه المواضع ثلاثة وكان طلب على ضعه عينة قوية فإنه يجد هو فى موضع متوسط من هذه مواضع ثلاثة ، وكان قد استقر فى نفسه أن جميع الأعضاء مختلفة بعضها من واجب بحسب ذلك أن تكون مسكنه فى الوسط . وكان أيضاً يرجع إلى ذاته شعر بمثل هذا العضو فى صدره ولأنه كان يعترض سائر أعضائه كالبد والرجل والأذن والأنف والعين ويعلم مفارقتها فيتأتى له أنه كان يستغنى عنها وكان يجد فى رأسه مثل ذلك ويظن أنه يستغنى عنه فإذا فكر فى الشىء الذى يجده فى صدره ، وجد أنه لا يستغنى عنه طرفة عين .

وكذلك كل عضو يحرمه الوحوش أكثر مما كان يتقى من صياصيهم على صدره ، لشعوره بالشيء الذي فيه .

فما حرم يا حكم من العضو الذي ترتمي به الآفة إنما هو في صدره أجمع على البحث عنه والتفتيش عما يضيره به ويرى أنه فيه . ثم إنه خليق أن يكون نفس فقد هذا العضو من الآفة التي ترتمي به أولا فيكون سميه عليه .

ثم إنه فكر هل رأى من الوحوش وسواها من صار في مثل ذلك الحين ثم عاد إلى مثل حاله الأولى ، فلم يجد شيئا يحصل له من ذلك اليأس من رجوعه إلى حاله الأولى إن هو تركها وبقي به بعض رجاء في رجوعه إلى تلك الحال إن هو وجد ذلك العضو وإن الآفة عنه

فعمد على بعض صدره وبعض ما فيه وجعل من كثير الأحجار الصلبة وشقوق القصب يشد شدا السكاكين وشق به بين أضلاعه حتى قطع اللحم الذي بين الأضلاع وأفضى إلى الحجاب المستبطن للأضلاع وهو قوي قوة شديدة لأن مثل ذلك الحجاب لا يكون إلا مثل ذلك العضو . وطمع أنه إذا تجاوزه إلى مطلوبه ، فلن يشق القصب عنه هذه الآلات والأنياب . فكان إلا من الحجارة والقصب ، فيستجد الرئة ويستجد ويضرب في خرق الحجاب حتى خرق له وأفضى إلى الرئة فقطع أولا من مطلوبه ما لم يقتله ويضيع موضع الآفة به .

وكان أولا يجد منه العضو الذي هو في الجانب الأيمن فصار همه إلى جهة واحدة وكان قد علم أن ذلك العضو لا يكون إلا في الوسط في عرض البدن كما هو في وسط في طوله . فلم يزل يبحث في وسط الصدر حتى أفضى إلى القلب ، وهو عضو يعيش في عيشة القوة مرتبط بتعلق في غيره وإنما مطيفة به من الحية التي لا يعيش منها . فقال في نفسه : إن كان هذا العضو من الجهة الأخرى مثل حاله من هذه الجهة فهو في حقيقة الوسط ولا محالة أنه مطلوبي ، لا سيما مع ما أرى به من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة الشعث وقوة اللحم وأنه محجوب بمثل هذا الحجاب

الذى لم أر مثله لشىء من الأعضاء » .

فبحث عن الجانب الآخر من الصدر فوجد فيه الجنب مستطيل الأضلاع ووجد الرئة على ما وصفه من هذه الجهة . فكر بأن ذلك العضو هو مطلوبه فحاول هتك جنبه وشق شغافه فبكد واستكراه ما قدر على ذلك بعد استفراغ مجهوده .

وجرد القلب فرآه مصمتاً من كل جهة فظن هل يرى فيه ثقبة ظاهرة ، فلم ير فيه شيئاً فشد عليه يده فتبين له أن فيه جوفاً ، فقال : « هل مطلوبى الأقصى إنما هو فى داخل هذا العضو ؟ حتى الآن وصل إليه » .

فشق عليه قلبى فرآه بجوفين بينهما حاجز من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى وبدى من الجهة اليمنى شىء بعض منعقد وبدى من جهة اليسرى حال لا شىء فيه ، فقال : « لا بد بعد مطلوبى أن يكون مسكنه أحد هذين البيتين » ثم قال « أما هذا البيت الأيمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد . ولا شك أنه دم منعقد حتى صار الجسد كله فى هذا الحال » وكان قد شق بطنه كله منى ساعة وجرحت العضلات وجدت وهو كل هذا لا يدرى بنفسه وقال « أرى أن هذا الدم موجود فى سائر الأعضاء لا يختص به عضو دون آخر . وليس مطلوبى منذ بهذه الصفة إنما مطلوبى الشىء الذى يختص به هذا الموضع الذى أجدنى لا أستغنى عنه طرفة عين وإليه كان استعدادى من أول

وأما هذا الدم فكم مرة حرجنى الوحوش والحيات فلم أر منى كثير منه فما عرى ذلك ولا أفتقدنى شىء من فعلى فهذا بيت يبس فيه مطلوبى وأما هذا البيت الأيسر فأراه خالياً لا شىء فيه وما أرى ذلك إلا لأن كل عضو من الأعضاء إنما هو فعل يختص به فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه خالياً ، ما أرى إلا أن مطلوبى كان فيه ، فارتحل عنه وخلاه . وبعد ذلك عرا على هذا الجسد من العطبة ما طرأ فعدم الإدراك وعدم الحراك .

فلما رأى أن ليس كل فى ذلك البيت قد ارتحل فعل ببهائمه وتركه وهو خاله

خص به أحرى أن لا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتحريق ما حدث. فصار عنده الجسد كله حسب الاقتراب إلى ذلك الشيء الذي اعتقد في نفسه أنه يمكنه مدة ولا يرحل عنه بعد ذلك. فاقتصر على التفكر في ذلك الشيء ما هو وكيف هو؟ وما الذي يرضيه بهذا الجسد؟ وإلى أين يصير؟ ومن أي الأبواب يخرج عند خروجه من الجسد؟ وما السبب الذي يمنعه إن كان خرج كارهاً؟ وما السبب الذي كره به الجسد حتى فارقه إن كان خرج مختاراً؟

وتشتت فكره في ذلك كله وسلا عن ذلك الجسد وطرحه وعلم أن هذه التي عطلت عنه وأرضته إنما كانت ذلك الشيء المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها لا هذا الجسد العاطل وأن هذا الجسد جسمه إنما هو كآلة لذلك وهذه العصابة التي أحدها هو الذي يحوش. وبقيت علاقته على الجسد بين صاحب الجسد ومحركه ما يتعلق به شوق إلى أهله.

وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وقامت منه ريح كريهة فزادت بعده عنه ووده أن لا يراه. ثم إنه صنع لنفسه عربال سلال حتى صار أحد هذه الأحراجية. ثم جعل أخي يبحث في الأرض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك البيت بالتراب فغاب في عينه. فلما أحكم صانع هذا الحرب في مواراة جيفة صاحبه وبين كل شيء في قبره وأنه كنت حتى لا هتدي إلى هذا الفعل الذي فعله الغراب حفر حفرة وألقى فيها جسد أخيه، وجعل عليه التراب، وقد يفكر في ذلك الشيء المضاف للجسد ولا يدري ما هو غير أنه كان يصير إلى شخص الجسد كله فيراه على شكل أخيه وعلى صورته. فكان يعجب على حسنه أن كل واحد منهما إنما يحركه ويصرفه شيء هو مثل الشيء الذي كان يحرك أخيه ويصرفه، فكان يأسف الضنا ويحزن لهلكان ذلك شبهه.

وبقي على ذلك برهة من الزمان تتصدع أنواع الحيوان واسعة، ويصوف ساحل

تلك الجزيرة ومعه من يرى أو يحدثه شيء حتى يرى كل واحد من أشخاص الحيوان وليست تشاهد كثيرة فلا حد شيء من ذلك وكان يرى البحر قد أحدق بالجزيرة من كل جهة فيعتقد أنه ليس في الوجود سوى جزيرته تلك .

واتفق في بعض الأحيان أن قذف البحر في أحد قذفاته[1] على سبيل المحاكمة .

فصار يراها رأي مطراً هدبه وحفظه يعتقد فيه فوقف يتعجب منه ملياً وما يزال يدعو منه شيئاً فشيئاً فرأى ما للبحر من الصفو والعمق الفاشي حتى لا تعلق شيء إلا أثبت عليه وحاسبه من عمقه فحمد المحسن منه وبارك الله تعالى في صنعه من أجل هذه الفائدة على أن قد يده إليه وأخذ منه شيئاً ، فما باشره احترقت يده فلم يستطع عليه وهدى إلى أن أحد قطعاً من النحاس من على جمعه فأخذ عليه السلم وأتى به في صرفه لآخر فأتى به ذلك وجعله في موضعه الذي كان يرى فيه وكان قد خلا في بحر استحسنه لمسكنه فيه ذلك .

ثم مكث ذلك الشاب يحشش ويحطب الحزم ويجهدها بالأوبة استحسنه وتعجب منه . وكان يرى أنه منه بالأب كانت عنده مقدمة في الصبر والدأب فصبر منه ووعاه وعجب أنه فصل الأشياء التي لديه وكان دائماً يراه يتحرك في جهة فوق فعجب أمره فصبر على صنعه أنه من جملة الجواهر السوية التي كان يشاهدها .

وكان يختبر قوتها في جميع الأشياء التي يتعبها فيها فيراها مستوية عليها إما سرعة وإما بطء بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يتعبه لاختباره وصنعه .

وكان من جملة ما أتى به على سبيل الاختبار قوتها على أصناف الحيوانات البحرية فكان قد أعده البحر في صحته — فلما صحت ذلك خيول وسطع فتاره[2] تحركت شهوته إليه فأكل منه شيئاً فاستطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم فصرف الحيلة في صيد البر والبحر ، حتى مهر في ذلك .

(١) [illegible] (٢) [illegible]

وزادت محمد المدبر ذ تأتى له بها من وجوه الاعتداء الطيب شيء ، يثبت له قبل ذلك فقد استند شعفه بها لما رأى من حسن أثرها وقوة اقتدارها وقع فى نفسه أن الشيء الذى ارتحل من قلب أمه الضبية التى شاهدته كان من جوهر هذا الموجود أو من شيء يجانسه . وأكد ذلك فى ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته و برودته من بعد موته وكل هذا دائم لا يحيل وما كان تحدثه فى نفسه من شدة الحرارة عند صدوره يراه الموضع الذى كان قد شق عنه من الظبية فوقع فى نفسه أنه لو أحمى حيوانا حتى يشق قلبه ونظر إلى ذلك التجويف الذى صادفه حيا عند ما شق عنه فى أمه الضبية يراه فى هذا الحيوان وهو شيء ذلك الشيء الساكن فيه ، وتحقق هل هو من جوهر النار وهل فيه شيء من الضوء والحرارة أم لا ؟ فعمد إلى بعض الوحوش واستوثق منه كتفه وشقه على الصفة التى شق بها الظبية حتى وصل إلى القلب فقصده أولا إلى جهة اليسرى منه وشقها فرأى ذلك الفراغ مملوءا بهواء حتى يشبه الصفاق الأبيض فأدخل أصبعه فيه فوجده من الحرارة فى حد كاد يحرقه ومات الحيوان ذلك على الفور .

فصح عنده أن ذلك البخار الحار هو الذى كان يحرك هذا الحيوان وأن فى كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك متى انفصل عن الحيوان مات .

ثم تحركت فى نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها ووضعها وكيفيتها وكيفية ربط بعضها ببعض وكيف يستمد من هذا البخار الحار حتى يستمر له الحياة به وكيف تفنى هذا البخار مدة التى يبقى ومن أين يستمد وكيف لا يستمد حرارته ؟

فشرع ذلك كله يتصرح الحيوانات الأحياء ولا يموت وما يزال يعمل الفكر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ فى ذلك كله مبلغ كثير المتصفحين فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وإن كان كثير الأعضاء وتعدد حواسه وحركاته فيه واحد ذلك الروح الذى مبدؤه من قرار واحد وانقسامه فى سائر الأعضاء منبث منه .

وإن جميع الأعضاء إنما هى خادمة له أو مؤدية عنه . وإن سره ذلك الروح فى

تصريف الجسد كمرلة من يحارب الأعداء بسلاح واحد ويصيد جميع صيد البحر والبر فيعد لكل حيوان آلة يصيده بها والتي يحارب بها تنقسم إلى ما يدفع به بكاية غيره وإلى ما يهجم بها غيره .

وكذلك آلات الصيد تنقسم إلى ما يصلح لحيوان البحر وإلى ما يصلح لحيوان البر ، وكذلك الأشياء التي يشرح بها تنقسم إلى ما يصلح للشق وإلى ما يصلح للكسر وإلى ما يصلح لثقب . وكل واحد وهو يعرف ذلك أحد من التعريف بحسب ما يصلح له كل آلة وبحسب الهيئات التي لتلتمس بتلك التعريف

كذلك — ذلك الروح لحيوان واحد وبدا عن آلة لعين كل فعله يصر وبدا عمل آلة لأنف كل فعله شم ، وبدا عن آلة لسن كل فعله ذوق ، وبدا عن واحد واللمس كان فعله ، وبدا عمل بعضو كل فعله حركة وبدا عمل بكبد كان فعله غذاء واغتذاء .

وبكل واحد من هذه الأعضاء تخدمه ولا بد شيء من هذه فعل إلا تفصل إليها من ذلك الروح على طرق التي تسمى عصب ومتى انقطعت تلك الطرق أو سدت تعطل فعل ذلك العضو . وهذه الأعصاب إنما تستمد الروح من عضو الدماغ والدماغ يستمد روح من القلب والدماغ فيه روح كثيرة لأنه موضع تتوزع فيه أقسام كثيرة فذي عضو عدمه هذا الروح سبب من الأسباب تعطل فعله وصار بمنزله الآلة المطرحة التي لا يصرفها فاعل ولا ينتفع بها . فمن خرج هذا الروح تحلله عن الجسد أو في أو عمل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله ، وصار إلى حالة الموت وينتهي به هذا النحو من التعريف هذا الجسد من النظر على رأس ثلاثة وسبع من مشيته وذلك أحد وعشرون عاماً .

* * *

وفي خلال هذه المدة المذكورة تفنن في وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واتخذ الخيوط من الأشعار ولف قصب الحنطية

واحدى و نصب وكل ست ذى حمة .

وكان أول اهتدائه إلى ذلك أنه أخذ من الخلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوى و نصب العدد على الحجارة واهتدى إلى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف فاتخذ محراثاً و ست مفصلة عدة له وخص عليه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض لئلا يصل إليه شيء من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة فى بعض شؤونه .

واستأنف جوارح الطير لتستعين به فى الصيد واتخذ المواخى ينتقى منها وفراخها ، واخذ من صيصى الطير الوحشية شيئاً لأسنة وركبها فى نصب قوى وفى عصى اتخذها وعرفها واستعان فى ذلك بالصبر وتعروف الحجارة حتى صنع شبه الرمح واتخذ ترسه من جلود مصنعة كل ذلك مما رآى من عدته الصلاح الصنعى .

وما أى أن يدع شيئاً يقوى به بكل ما وجده من ذلك — وكان لا يقدم شيء من الحيوانات على حتى يعرف أنه نهم لأنه كان تقرر عنه فتحجره هو فكر فى وجه الحيلة فى ذلك فلم يزل حتى نجح له من أن يتألف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحبس بعضها بعد عدوه الذى يصيح به حتى يتأتى له أن يركب عليه ويطارد به سائر الأصناف منها ، وكان يتخذ من جلود جمال برية وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمل له منها ما حمله عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج فتأتى له بذلك ما أمله من تأليف الحيوانات التى صعبت عليه حيلة فى أخذها وربما تعبن فى هذه الأمور كلها فى وقت يسيره ويشريح وسهوله فى وقوفه على خصائص أعضاء الحيوان وقد تحسب وذلك فى مدة التى حددت منتهاها واحد وعشرين عاماً .

ثم إنه بعد ذلك أخذ فى مأخذ آخر فتصفح جميع الأجسام التى فى عالم الكون والفساد[1] من الحيوانات على اختلاف أنواعها والنبات والمعدن وأصناف الحجارة

(١) الكون يعبر عنه بوجود الشيء من العدم والفساد يعبر الشيء من الوجود إلى العدم

و تراب وماء والبحر والثلج والبرد والدخان والحديد والذهب والحجر ، فرأى لها أوصافاً كثيرة وأفعالاً مختلفة وحركات متفقة ومتضادة وأعم البصر في ذلك وتثبت فرأى أنها تتفق بعض الاتفاق وتختلف بعض وأنها من الجهة التي تتفق بها واحدة ومن الجهة التي تختلف فيها متغايرة ومتكثرة ، فكان ترى بعض خصائص الأشياء وما تنفرد به بعضها عن بعض فكثر عدد كثيرة تخرج عن الحصر وتستدل الوجود بشاراً لا يضبط .

وكانت تلك عدة أصناف لأنه كان يعتبر بين اختلاف أعضائه وبين كل واحد منها متحد بعض وصفه تخصه وكان ينظر إلى كل عضو منها فيرى أنه يحصل لنفسه بين أجزاء كثيرة جداً فيحكم على ذاته بالكثرة وكذلك على ذات كل شيء ثم كان يرجع إلى نظر آخر من صنف ذلك فيرى أن أعضاءه وإن كانت كثيرة فهي متصلة كلها بعضها ببعض إلا بعض يسير وجه فهي في حكم الواحد وأنها لا تختلف إلا بحسب اختلاف أفعالها وأن ذلك الاختلاف إنما هو بسبب ما يحصل فيها من قوة روح الحيوان الذي أعطيها بعد شيء ولا وأن ذلك الروح واحد في ذاته وهو أيضاً حقيقة ذات وسائر الأعضاء كلها كالآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا النظر .

ثم كان يتأمل في جميع أنواع الحيوان فيرى في كل شخص منها وحدة بعد النوع من البصر ثم كان ينظر في نوع منها كالفرس والجمل والحمار وأصناف الطير صنفاً صنفاً فكان يرى أشخاص كل نوع منها متفقة بعضاً في الأعضاء الظاهرة والباطنة والأدراكات والحركات وسائر ولا يرى بينها اختلافاً إلا في أشياء يسيرة بالإضافة إلى ما اتفقت فيه .

وكان يحكم بأن الروح الذي في جميع ذلك النوع شيء واحد وأنه وإن اختلف إلا أنه انقسم على قوى كثيرة وأنه وإن أمكن أن يجمع جميع الذي افترق في تلك القوى منه ويجعل في وعاء واحد لكان كله شيئاً واحداً كثيرة منه واحداً وسائر واحد يفرق على أوان كثيرة ثم يجمع بعد ذلك

فهو فى حقيقته وجمعه شىء واحد وإنما عرض له التكثر بوجه ما ، فكان يرى النوع كله بهذا النظر واحد وبعض كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة أعضاء الشخص الواحد التى ما تكن كثيرة فى الحقيقة

ثم كان يحصر أنواع الحيوان كلها فى جنسه ويضمها فيراها تلتقى فى أمر تحس وتتحدى وتتحرك بالإرادة إلى أى جهة شاءت وكان قد علم أن هذه الأمور هى أخص أفعال نوع الحيوان وأن سائر الأشياء التى تختلف به بعد هذا الاتفاق ليست شديدة الاختصاص بالروح الحيوانى

فظهر له بهذا التأمل أن الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة وإن كان فيه اختلاف يسير اختص به نوع دون نوع بمنزلة مادة واحدة مقسومة على أوان كثيرة بعضه أبرد من بعض وهو فى نفسه واحد وكل ما كان فى صفة واحدة من البرودة فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح جنسه بنوع واحد وبعد ذلك فكما أن تلك المادة كلها واحد فكذلك الروح الحيوانى واحد وإن عرض له التكثر بوجه ما

فكان يرى جنس الحيوان كله وحداً بهذا النوع من النظر . ثم كان يرجع إلى أنواع النبات على اختلافها فيرى فى كل نوع منها أشخاصه بعضها بعض فى الأغصان والورق والزهر والثمر والأصل فكان يحسب الحيوان وجميع النبات شيئاً واحداً اشتركت فيه هو هو بمنزلة الروح للحيوان وبهذا يحدث شىء واحد .

وكذلك كان ينظر إلى جنس النبات كله فيحكم بوحدته بحسب ما يراه من اتفاق فعله فى أنه ينمى ويغتذى .

ثم كان يجمع فى جنسه جنس الحيوان وجنس النبات فيراهما جميعاً متفقين فى الاغتذاء والنمو ، لأن الحيوان يزيد على النبات بفضل الحس والإدراك والتحرك وما ظهر فى النبات شىء شبيه به مثل عروق وجوه تظهر إلى جهة الشمس وتحرك عروقه إلى جهة الغذاء وأشباه ذلك فظهر له بهذا التأمل أن النبات والحيوان شىء واحد بسبب شىء واحد مشترك بينهما هو فى أحدهما أتم وأكمل وفى الآخر قد عاقه

عالق ما وأن ذلك ثمرة ماء واحد قسم قسمين أحدهما حامض والآخر مالح فيتحد عنده النبات والحيوان .

ثم نظر إلى الأجسام التي لا تحس ولا تغتذى ولا تنمو من الحجارة والتراب ، والماء والهواء والنهب فيرى أنها أجسام مقدرة بطول وعرض وعمق ، وأنها لا تختلف إلا أن بعضها دهنى وبعضها لا دهنى وبعضها حار وبعضها بارد ونحو ذلك من الاختلافات

وكان يرى أن الحار منها يصير باردا والبارد ( يصير ) حارا وكان يرى الماء يصير بخارا والبخار يصير ماء والأشياء المحترقة تصير جمرا والجمر رمادا ، والدخان إذا وافق فى صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار ثمرة سائر الأشياء الأرضية فظهر له بهذا التأمل أن جميعها شىء واحد فى الحقيقة وإن اختلفت الكثرة نوعه فلذلك لحقت الكثرة للحيوان والنبات .

ثم ينظر إلى الشىء الذى اتحد عنده النبات والحيوان فيرى أنه جسم مثل هذه الأجسام له طول وعرض وعمق وهو إما حار وإما بارد كواحد من هذه الأجسام التى لا تحس ولا تغتذى ، وإنما حصلت فيه النفس التى تظهر عنه الدلالات الحيوانية والنباتية لا غير ، ولعل تلك الأفعال ليست ذاتية وإنما تسرى إليه من شىء خارج سرت إلى هذه الأجسام الأخر كالتى منه .

فكان يبصر بهذه النظرة عن هذه الأفعال التى تظهر عندى الرأى أنها صادرة عنه فكان يرى أنه ليس لا جسم من هذه الأجسام فيظهر له بهذا التأمل أن الأجسام كلها شىء واحد جنسه وحده متحركة وساكنة إلا أنه يصير بعضها أعضاء وآلات ولا يدرى هل تلك الأفعال ذاتية لها أو سارية إليها من غيرها .

وكان فى هذه الحال لا يرى شيئا غير الأجسام فكان بهذا النظر يرى الوجود كله شيئا واحدا وبالنظر الأول يرى الوجود كثرة لا تحصر ولا تتناهى .

وبقى بحكم هذه حاله مدة

ثم إنه تأمل جميع الأجسام وجدها وهى التى عنده ذات شىء واحد وصورة كثيرة كثرة لا شبيه لها ورأى أن كل واحد منها لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يتحرك إلى جهة كما مثل الدخان والبخار والهواء إذا انحبس تحت الماء ، وإما أن يتحرك إلى الجهة المضادة لتلك الجهة وهى جهة السفل مثل الماء وأجزاء الأرض وأجزاء الحيوان والنبات وأن كل جسم من هذه الأجسام لن يعرى عن إحدى هاتين الحركتين وأنه لا يمكن إلا إذا منعه مانع يعوقه عن حركته مثل الحجر الذى يصادف وجه الأرض صلبا فلا يمكنه أن يخرقه ولو أمكنه ذلك لما انثنى عن حركته فى ظهر وبذلك إذا رفعه وحده يتحامل عليك ليتجه إلى جهة السفل طالبا لمقره

وكذلك الدخان فى صعوده لا ينثنى إلا أن يصادف قبة صلبة تحبسه فحينئذ يتعطف تحتها شمالا ثم إذا انحبس من تلك الجهة جرى الهواء صاعدا لأن الهواء لا يمكنه أن يحبسه

وكان يرى الهواء إذا هوى به ثم حبس وربط ثم عوض تحت الماء صعد لصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ولا يزال يفعل ذلك حتى يأتى موضع الهواء وذلك خروجه من تحت الماء حينئذ يسكن ويزول عنه ذلك التحامل والميل إلى جهة الهواء الذى كان يوجد منه فى ذلك

ونظر هل يوجد جسم يعرى عن إحدى هاتين الحركتين أو الميل إلى إحداهما فى وقت ما فلم يجد ذلك فى الأجسام التى بيديه ورآها تطلب ذلك لأنه متى رفع حجرا فيرى طبيعة الجسم من حيث هو جسم دون أن يقترن به وصف من الأوصاف التى هى محل الكثرة

فلما عاين ذلك ونظر إلى الأجسام التى هى أقل الأجسام حظا من الأوصاف فلم يرها تعرى عن أحد هذين الوصفين لوجه ما مثل ما ذكر عنهما من الثقل والخفة

فطر إلى الثقل واحدة هل هو للجسم من حيث هو جسم أو هو لمعنى زائد على الجسمية ؟ فظهر له أنه معنى زائد على الجسمية لأنه لو كان للجسم من حيث هو جسم لوجد جسم لا وزن له . ونحن نجد الثقل لا يوجد فيه الخفة والخفيف لا يوجد فيه الثقل وهما لا يعدوان جسمين ولكل واحد منهما معنى متفرد به عن الآخر زائد على جسميته وذلك المعنى هو الذي به يحرك كل واحد منهما الآخر ولولا ذلك لكان شيئاً واحداً من جميع الوجوه

فتبين له أن حقيقة كل واحد من الثقيل والخفيف مركبة من معنيين ، أحدهما ما اشتركا فيه لأنهما جسمان وهو معنى جسميته والآخر ما ينفرد به حقيقة كل واحد منهما عن الآخر وهو ما يتفق في أحدهما به مخالفة في الآخر فالمعنى المشترك معنى الجسمية أي المعنى الذي يحرك أحدهما علواً والآخر سفلاً

وكذلك نظر إلى سائر الأجسام من الحيوانات والأجسام فرأى أن حقيقة وجود كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية ومن شيء آخر زائد على جسمية به وجد وإلا لم يكن من واحد فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العلم وهي صور لا تنال بالحس وإنما تدرك بضرب من النظر العقلي .

ولاح له في جملة ما لاح من ذلك أن روح الحيوان الذي يمسكه الاسم وهو الذي تقدم شرحه .

أولاً :

لا بد له أيضاً من معنى زائد على جسميته يصح بذلك المعنى أن تعمل هذه الأعمال الغريبة التي تختص به من ضروب الإحساسات وفنون الإدراكات وأصناف الحركات . وذلك المعنى هو صورته وقسمه الذي انفصل به عن سائر الأجسام وهو الذي يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية .

وكذلك أيضاً للشيء الذي يقوم للسمات مقام الحجر الغريزي للحيوان شيء يخصه

هو فصله وهو الذى يعبر عنه النفاذ بنفس نفاذة .

وكذلك جميع أجسام الجمادات وهى ضد الحيوان والنبات معاً فى عالم الكون والفساد شيء يخصها به يفعل كل واحد منها فعله الذى يخص به مثل صعود الحركات وهروب الكيفيات المحسوسة عنها وذلك لشيء هو نفس كل واحد منها وهو الذى نعبر النظار عنه بالطبيعة .

فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيوانى الذى كل شوقه إليه أنما مركبة من معنى الحسية ومن معنى آخر زائد على الحسية وأن معنى هذه الحسية مشترك بينه وبين الأجسام ومعنى الآخر الذى به تفرد به هو وحده هل عنده معنى الحسية فطرحه وتعلق فكره بالمعنى الثانى وهو الذى نعبر عنه بالنفس فتشوق إلى التحقق به فألزم الفكرة فيه وجعل مبدأ النظر فى ذلك تشبيح الأجسام كلها لا من جهة ما هى أجسام بل من جهة ما هى دون صورة النفس عنها حواص يتفصل بها بعضها عن بعض فتبع ذلك وحصره فى نفسه فرأى جملة من الأجسام تشترك فى صورة ما يصدر عنها فعل ما وأفعال ما وأنى فريد من تلك الجملة مع أنه شريك لجملة تلك الصورة يزيد عليها بصورة أخرى تصدر عنها أفعال ما وأنى طائفة من ذلك الفريق فى الصورة الأولى والثانية تزيد عليها صورة ثالثة تصدر عنها أفعال ما خاصة بها مثال ذلك أن الأجسام الأرضية كلها مثل التراب والحجارة والمعادن والنبات والحيوان وسائر الأجسام الثقيلة هى جملة واحدة تشترك فى صورة واحدة تصدر عنها الحركة إلى أسفل ما لم يعقها عائق عن النزول

ومتى حركت إلى جهة العلو بقسر ثم تركت تحركت بصورتها إلى أسفل .

وفريق من هذه الجملة وهو النبات والحيوان مع مشاركته الجملة المتقدمة فى تلك الصورة يزيد عليها صورة أخرى يصدر عنها النمو والتغذى .

والتغذى : هو أن يجعل المتغذى بدل ما يتحلل بالفعل منه بواسطة القوة المغذية التى تحيل ما تحصل له كامل الاستعداد بسبب القوة الخاصة من الغذاء بالقوة إلى أصله

بواسطة الحادية إلى مشاكلة جوهر المتغذى حفظا لشخصه وتكميلا لمقداره .

والنمو : هو الزيادة بواسطة القوة الغاذية وهى التى تزيد فى أقطار الجسم أعنى الطول والعرض والعمق على التناسب الطبيعى بما تدخل فى أجزائه من الغذاء .

فهذان القبيلان عامان للنبات والحيوان وهما لا محالة صادران عن صورة مشتركة لهما وهى المعبر عنها بالنفس النباتية .

وخاصة من هذا الفريق وهو الحيوان خصه مع مشاركة الفريق المتقدم فى الصورة الأولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة يصدر عنها الحس والنقل من حيز إلى آخر

ورأى أيضا كل نوع من أنواع الحيوان له خاصية يمتاز بها عن سائر الأنواع ويتفصل بها متميزا عنها

فمما دل ذلك صادر به عن صورة تخصه هى الدالة على معنى الصورة المشتركة له وسائر الحيوان وكذلك لكل واحد من أنواع النبات مما دل ذلك فبين له أن الأجسام المحسوسات التى فى عالم الكون والفساد بعضها بسيط حقيقته من معنى كثيرة زائدة على معنى الجسمية وبعضها من معنى أقل وعلم أن معرفة الأقل أسهل من معرفة الأكثر فقصد أولا الوقوف على حقيقة صورة الشىء الذى بسيط حقيقته من أقل الأشياء ورأى أن الحيوان والنبات لا تتشخص حقائقهم إلا من معان كثيرة لتفصل فتحتاج التفكير فى صورهم وكذلك أى أن أجزاء الأرض بعضها أبسط من معان فقصد منها إلى أبسط ما قدر عليه وكذلك رأى أن لكل شىء فعل التركيب لقد ما يصدر عن صورته من الأفعال وكذلك فى النار والهواء

وقد كان سبق إلى علمه أولا أن هذه الأربعة يستحيل بعضها إلى بعض وأن هناك شيئا واحدا تشترك فيه وهو معنى الجسمية وأن ذلك الشىء يمتنع أن يكون خلوا من معانى التى تميز بها كل واحد من هذه الأربعة عن الآخر فلا يمكن أن يتحرك إلى فوق ولا إلى أسفل ولا أن يكون حارا ولا أن يكون باردا ولا أن يكون رطبا ولا يابسا لأن كل واحد من هذه الأوصاف لا يعم جميع أجسام بل الجسم

بما هو جسم فإذا أمكن وجود جسم لا صورة فيه زائدة عن الجسمية فليس تكون فيه صفة من هذه الصفات ولا يمكن أن تكون فيه صفة إلا وهي تعم سائر الأجسام المتصورة بصروب الصور .

فنظر هل يجد وصفاً واحداً يعم جميع الأجسام ، حيها وجامدها ، فلم يجد شيئاً يعم الأجسام كلها إلا معنى الامتداد الموجود في جميعها في الأقطار الثلاثة التي يعبر عنها بالطول والعرض والعمق فعلم أن هذا المعنى هو للجسم من حيث هو جسم فكلما ما ثبت له الحس وجود جسم فهذه الصفة وحدها حتى لا يكون فيه معنى زائد على الامتداد المذكور ويكون بالجملة خلواً من سائر الصور .

ثم تفكر في هذا الامتداد في الأقطار الثلاثة هل هو معنى الجسم نفسه وليس ثم معنى آخر أو ليس الأمر كذلك فرأى أن وراء هذا الامتداد معنى آخر هو الذي يوجد فيه هذا الامتداد وحده لا يمكن أن يقوم بنفسه كما أن ذلك الشيء الممتد لا يمكن أن يوجد بنفسه دون امتداد .

واعتبر ذلك بمعنى هذه الأجسام المحسوسة ذوات الصور كالطين مثلاً فرأى أنه إذا جعل منه شكل ما كالكرة مثلاً كان له طول وعرض وعمق على قدر ما . ثم إن تلك الكرة متى أحدث ورتب في شكل مكعب أو بيضي امتد ذلك الطول وذلك العرض وذلك العمق وصار على قدر آخر غير الذي كان عليه والطين واحد فيه لما امتد غير أنه لا بد له من طول وعرض وعمق على أي قدر كان ولا يمكن أن يعرى عنها غير أنها مختلفة فيه بحيث أنها معنى على حياله وهكذا لا يعرى أحدها عنها بحيث أنها من حقيقته .

فلاح له بهذا الاعتبار أن جسماً ما هو جسم مركب على الحقيقة من معنيين أحدهما الذي يقوم منه مقام الطين المكرة في هذا المثل . والآخر الذي يقوم مقام طول الكرة وعرضها وعمقها أو المكعب أو أي شكل كان مما وأنه لا يفهم الجسم إلا مركباً من هذين المعنيين وأن أحدهما لا ينفك عن الآخر بل الذي يمكن

أن تتدل و تتعاقب على أوجه كثيرة ، وهو معنى الامتداد يشبه الصورة التي لسائر الأجسام ذوات الصور والتي ثبت على حال واحدة وهو الذي يرى مرة الصين المتقدم يشبه معنى الجسمية التي لسائر الأجسام ذوات الصور . وهذا الشيء الذي هو عبرة الصين في هذا المثال هو الذي يسميه المتكلمون المادة والهيولى وهي عبارة عن الصورة جملة

فلما انتهى نظره إلى هذا الحد وقف في محسوس بعض مقدوره وأشرف على تخوم المعنى المستوحش وحن إلى ما فوقه من عالم الحس فتقهقر قليلا وترك الجسم على الإطلاق إذ هذا الأمر لا يدركه الحس ولا يقف على كنهه وأحد أبسط الأجسام المحسوسة التي يشاهدها وهي بعد لأن تعمه التي كل قد وقف عند وعجز .

فأول ما نظر إلى هذه التي أنه إذا حلى هذا الجسم صورة صورة ورد المحسوس وصف الحرور إلى أن يفعل فيدا سخن أولا بعد حين وبعد حرارة الشمس زال عنه البرد أولا وبقي فيه طلب الفعل فيدا أوقع عليه الشمس زال عنه طلب الحرور إلى أن يفعل وصار طلب الصعود إلى فوق فزال عنه بالجملة الوصف الذي كان يدل الحس عليه وعن صورته وما عرف من صوره أكثر من صدور هذين المعنيين عنه فعلم أن هذين المعنيين في حكم الصورة وأن الصورة نائبة عن ذلك الجسم بعد ما طهرت منه أفعال من شأنها أن تصدر عن صورة أخرى وحدثت به صورة أخرى بعدها لم تكن وصدر عنه بها أفعال لم تكن من شأنها أن تصدر عنه وهو بصورته الأولى .

فعلم بالضرورة أن كل حادث لا بد له من محدث . وراسم في نفسه بعد الأعمار فاعل للصورة ارتسامًا على العموم دون التفصيل

ثم إنه جمع الصور التي كان قد علمها في ذلك صورة صورة ورأى أنها كلها حادثة وأنها لا بد لها من فاعل ثم إنه نظر إلى ذوات الصور فوجد أنها شيء أكثر

من استعداد الجسم لأن يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فإنه إذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة إلى فوق وصلح له ذلك الاستعداد هو صورته إذ ليس فيها إلا جسم وشيء تحس عنه بعد أن لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد أن لم تكن فصلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته ولاح له مثل ذلك في جميع الصور فتبين له أن الأفعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وإنما هي لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها وهذا المعنى الذي لاح له هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » ، وفي محكم التنزيل : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الإجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث إلى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن فارق عالم الحس فجعل يطلب هذا الفاعل المحيط على جهة المحسوسات وهو لا يعلم بعد هل هو واحد أو أكثر ؟ فتصفح جميع الأجسام التي لديه وهو الذي كانت فكرته أبداً فيها فرآها كلها تتكون تارة وتفسد أخرى ، ورآها تقف على فساد جسمه وقف على فساد أخرانه مثل الماء والأرض فإنه أي أخرانها عند بخار وكذلك الهواء رآه عند شدة البرد حتى يتكون منه ثلج فيسيل منه وكذلك سائر الأجسام التي كانت لديه لم ير منها شيئاً يرتفع عن الحدوث ولا يفتقر إلى الفاعل بل رآها كلها واقفة فكرته إلى الأجسام السماوية

* * *

وانتهى إلى هذا النظر على رأس أربعة وسبعين من عمره وذلك ثمانية وعشرون عاماً فعلم أن السماء وما فيها من الكواكب أجسام لأنها ممتدة في الأقطار الثلاثة الطول والعرض والعمق لا يفقد شيء منها عن هذه الصفة وكل ما لا يخلو عن هذه الصفة فهو جسم فهي إذن كلها أجسام ثم تفكر هل هي ممتدة إلى غير نهاية وذاهبة أبداً في الطول والعرض والعمق إذن غير نهاية أو هي متناهية محدودة تنقطع عندها

ولا يمكن أن يكون وراءها شيء من الامتداد ؟ فتحير في ذلك بعض حيرة . ثم إنه بقوة نظره وذكاء خاطره رأى أن جسما لا نهاية له أمر باطل وشيء لا يمكن ومعنى لا يعقل وتقوى هذا الحكم عنده بحجج كثيرة سنحت له بينه وبين نفسه وذلك أنه قال أما هذا الجسم السماوي فهو متناه من الجهة التي تليني والناحية التي وقع عليها حسي فهذا لا أشك فيه لأني أدركه ببصري وأما الجهة التي تقابل هذه الجهة وهي التي يدخلني فيها الشك فإني أيضاً أعلم أنه من المحال أن تمتد إلى غير نهاية لأني إن تخيلت أن خطين اثنين يبتدئان من هذه الجهة المتناهية ويمران في سمك الجسم إلى غير نهاية حسب امتداد الجسم ثم خيلت أن أحد هذين الخطين قطع منه جزءاً كبيراً من ناحية طرفه المتناهي ثم أخذ ما بقي منه وألصق طرفه الذي كان فيه موضع القطع على طرف الخط الذي لم يقطع منه شيء وألصق الخط المقطوع منه على الخط الذي لم يقطع منه شيء وذهب الذهن كذلك معهما إلى جهة التي تقابل إنها غير متناهية فإما أن كلا الخطين أيضاً يمتدان إلى غير نهاية ولا ينقص أحدهما عن الآخر فيكون الذي قطع منه جزء مساوياً للذي لم يقطع منه شيء وهو محال كما أن الكل مثل الجزء محال وإما أن لا يمتد الناقص معه أبداً بل ينقطع دون مذهبه ويقف عن الامتداد معه فيكون متناهياً فيدارد عليه القدر الذي قطع منه أولاً وقد كان متناهياً صار كله أيضاً متناهياً وحينئذ لا ينصرف على الخط الآخر الذي لم يقطع منه شيء ولا يفضل عليه فيكون مثله وهو متناه فذلك أيضاً متناه

فالجسم الذي تتعرض فيه هذه الخطوط متناه وكل جسم يمكن أن تعرض فيه هذه الخطوط فكل جسم متناه .

فإذا وضح أن جسم غير متناه فقد وضح باطلاً ومحالاً .

. . . . . .

فلما صح عنده بهذه الدلائله التي سبقت مثل هذه الحجة أن جسم السماء متناه أراد أن يعرف على أي شكل هو ، وكمية الخطوط التي تحده فصار أولاً إلى

الشمس والقمر وسائر الكواكب وهو كلما يطلع من جهة المشرق ويغرب من جهة المغرب ثم كان منه يمر على سمت رأسه مرة فيقطع دائرة عظمى وما مال عن سمت رأسه إلى الشمال أو إلى الجنوب مرة فيقطع دائرة أصغر من تلك .

وما كان بعد عن سمت رأس بني آدم الحاضرين كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب حتى كانت أصغر الدوائر التي يحدث عليها الكواكب دائرتين تتبين إحداهما حول القطب الجنوبي وهي مدار سهيل والأخرى حول القطب الشمالي وهي مدار الفرقدين . فإذا كان مسكنه على خط الاستواء الذي وصفناه أولا كانت هذه الدوائر كلها واقعة على سطح أفقه ومتشابهة الأحوال في الجنوب والشمال وكان القطبان معا ظاهرين له وكان يرقب بدء طلوع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلوع كوكب آخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معا فكان يرى عروجهما معا وطردانه ذلك في جميع الكواكب وفي جميع الأوقات فيتبين له بذلك أن الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك في اعتقاده مرة من طلوع الشمس والقمر وسائر الكواكب إلى المشرق بعد مغيبها بالمغرب وما رآه أيضا من أنها تظهر بمصره على قدر واحد من العظم في حين طلوعها وفي سمت رأسها وحين تغيبها وأنها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة في بعض الأوقات أقرب إلى بصره منها في وقت آخر ولو كانت كذلك لكانت مقاديرها وأعظمها تختلف عند بصره فيراها في حال القرب أعظم مما يراها في حال البعد لاختلاف بعدها عن مركزه حينئذ خلافها على الأول فلم يكن شيء من ذلك يخفى عنده كونه الشكل .

وما زال يصحح حركة القمر فيراها واحدة من المغرب إلى المشرق وحركات الكواكب السيارة كذلك حتى تبين له قدر كبير من عدد أشكاله وصح له أن حركاتها لا تكون إلا بأفلاك كثيرة كلها متصلة في فلك واحد هو أعلاها وهو الذي يحرك الكل من المشرق إلى المغرب في يوم وليلة وشرح كيفية ذلك ومعرفة ذلك يطول وهو مثبت في الكتب ولا نحتاج منه في غرضنا إلا للقدر الذي أوردناه

فلما انتهى إلى هذه المعرفة ووقف على أن الفلك بحملته وما يحتوى عليه كشيء واحد متصل بعضه ببعض وأن جميع الأجسام التى كان ينظر فيها أولا كالأرض والماء والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هى كلها فى جملته وغير خارجة عنه وأنه كله أشبه شيء بشخص من أشخاص الحيوان وما فيه من الكواكب الكبيرة هى بمنزلة حواس الحيوان وما فيه من صروب الأفلاك المتصل بعضها ببعض هى بمنزلة أعضاء الحيوان وما فى داخله من عالم الكون والفساد هى بمنزلة ما فى جوف الحيوان من أصناف الفضول والرطوبات التى كثيرًا ما تكون فيها أيضًا حيوان كما يتكون فى العالم الأكبر .

فقد تبين له أنه كله كشخص واحد فى الحقيقة فانه محتاج إلى فاعل مختار وتحدث عنده أخواته الكثيرة نوع من النظر الذى اتحدث به عنده الأجسام التى فى عالم الكون والفساد تفكر فى العالم بجملته هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن وخرج إلى الوجود بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجودا فى سالف الدهر لم يسبقه العدم بوجه من الوجوه ؟ فتشكك فى ذلك ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الآخر وذلك أنه كان إذا أطلع على اعتقاد القدم اعترضته عوارض كثيرة من استحالة وجود ما لا نهاية له مثل تقدم الذى انتهى عنده به وجود جسم لا نهاية له . وكذلك أيضا كان يرى أن هذا الوجود لا يخلو من الحوادث فهو لا يمكن تقدمه عليها وما لا يمكن أن يتقدم على الحوادث فهو أيضا محدث فإذا أطلع على اعتقاد الحدوث اعترضته عوارض أخرى وذلك أنه كان يرى أن معنى حدوثه بعد أن لم يكن لا يفهم إلا على معنى أن زمانا تقدمه وزمان من جملة العدم وغير منفك عنه فبذلك لا يفهم تأخر العدم عن زمان وكذلك كان يقول : إذا كان حدثا فلا بد له من محدث وهذا المحدث الذى أحدثه إن أحدثه لأن وقع يحدثه فمن ذلك الذى أحدث ذلك ولا شيء هناك غيره ثم لم يزل حدث فى ذاته ؟ فإن كان الذى أحدث ذلك

النظر ؟ وما زال يتفكر في ذلك علة سنين فتعارض عنده الحجج ولا يترجح عنده أحد الاعتقادين على الآخر فلما أعياه ذلك حمل يتفكر ما الذي يلزم عن كل واحد من الاعتقادين فعلم اللازم عنهما يكون شيئاً واحداً فرأى أنه إن اعتقد حدوث العالم وخروجه إلى الوجود بعد العدم فاللازم عن ذلك ضرورة أنه لا يمكن أن يخرج إلى الوجود بنفسه وأنه لا بد له من فاعل يخرجه إلى الوجود وأن ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك شيئاً من الحواس لأنه ما أدرك شيئاً من الحواس يكون جسماً من الأجسام، وما كان جسماً من الأجسام يكون من جملة العالم وكل حادث واحتاج إلى محدث وهو كان ذلك المحدث الذي أيضاً جسماً لاحتاج إلى محدث ثالث والثالث إلى رابع ويتسلسل ذلك إلى غير نهاية ( وهو محال ) فإذن لا بد للعالم من فاعل ليس بجسم وإذا لم يكن جسماً فليس يدركه شيء من الحواس سبيل لأن الحواس الخمس لا تدرك إلا الأجسام أو ما يتعلق بالأجسام وإذا كان لا يمكن أن يحس فلا يمكن أن يتخيل لأن التخيل ليس شيئاً إلا إحضار صور المحسوسات بعد غيبتها وإذا لم يكن جسماً فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه وأول صفات الأجسام هو الامتداد في الطول والعرض والعمق وهو منزه عن ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الأجسام.

وإذا كان فاعلاً للعالم فهو لا محالة مدرك عليه وعالم به لأنه لا يعزب عن خلقه وهو اللطيف الخبير ؟ ؟

ورأى أيضاً أنه إن اعتقد قدم العالم وأن العالم لم يزل كما هو فإن اللازم عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء وما لم يزل متحركاً يكون مصدوماً منه وكل حركة فلا بد لها من محرك ضرورة ومحرك إما أن يكون قوة سارية في جسم من الأجسام إما جسم متحرك بنفسه وإما جسم آخر خارج عنه — وإما أن تكون قوة ليست سارية ولا شائعة في جسم وكل قوة ليست سارية في جسم ولا شائعة فيه فإنها لا تنقسم بانقسامه وتتضعف بتضعفه مثل الثقل في الحجر مثلاً المحرك

له إلى أسفل فإنه إن قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين وإن زيد عليه آخر مثله زاد في الثقل آخر مثله فليس يمكن أن يتزايد الحجر أبداً إلى غير نهاية كل تزايد هذا لثقل إلى غير نهاية وإن وصل الحجر إلى حد ما من العظم ووقف وصل الثقل أيضاً إلى ذلك الحد ولكنه قد يرهن أن كل جسم لا محالة متناه فإن كل قوة في جسم فهي لا محالة متناهية فإن واحد قوة تفعل فعلاً لا نهاية له فهي قوة ليست في جسم وقد وجد الفلك تتحرك أبداً حركة لا نهاية لها ولا ينقطع بل وجوده قديم لا ابتداء له فلو حكم على ذلك أن تكون قوته التي تحركه ليست في جسم ولا في جسم حال فيه فهي بذلك شيء يرى على الأجسام وغير موصوف بشيء من أوصاف الجسمية . وقد كان لاح به في نظره الأول في عدم تكون وانفساد أن حقيقة وجود كل جسم إنما هي من جهة صورته التي هي مستعدة لقبول الحركات وأن وجوده الذي له من جهة مادته وجود ضعيف لا يكاد يدرك فإن وجود المادة كله إنما هو من جهة استعدادها لتحريك هذه الصورة التي هي عدة وعن صفات الأجسام انتزعه عن أن له كمية حس أو تصور به حيال ما يحده وإذ كان فاعلاً لحركات الفلك على اختلاف أنواعها فعلاً لا يفوت فيه ولا قوة فيه لا تحده ولا تحد عليه وعداً به

فلنعد نحن هذا الطريق الذي ما سلكه إليه بالطريق الأول وهو نظره في ذلك نشكك في قدم العالم وحدوثه فصح له على وجهين جسم وجود وعلى غير جسم ولا منفصل جسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ولا متصل ولا منفصل ولا داخل ولا خارج هي كلها من صفات الأجسام وهو منزه عنها

وقد كانت مادة كل جسم منفردة في الصورة قد لا تقوم بالذات ولا تثبت لها حقيقة دونها وكانت الصورة لا يصح وجودها إلا من قبل هذا الذي عن مختار بيده اقتدر جميع الموجودات في وجوده إلى هذا الفاعل وأنه لا قوام شيء منها إلا به فهو إذن علة لها وهي معلولة له سواء كانت محدثة أو وجود بعضها عنه

أو كانت لا أسماء لها من جهة الزمان ولم يسبقها العدم قط فإنها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة إلى الفاعل متعلقة الوجود به ولولا دوامه لما تدم ولولا وجوده لما توجد ولولا قدمه لما كان قديمة وهو في ذاته غني عنها وبريء منها وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن أن قدرته وقوته غير متناهية وأن جميع الأجسام وما يتصل بها أو يتعلق بها ولو بعض تعلق هو منه منقطع ، فإن العالم كله بما فيه من السماوات والأرض والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها فعله وخلقه ومتأخر عنه بالذات وإن كانت غير متأخرة بالزمان كما أنك إذا أحدثت في قصعتك جسماً من الأجسام ثم حركت يدك في ذلك الجسم لا محالة يحدث تابعاً لحركة يدك حركة متأخرة عن حركة يدك تأخراً بالذات وإن كانت لا تتأخر بالزمان عنها بل كل واحد منهما فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل غير زمان « إلى آخره إذا أردت أن يقول به كل فيكون ».

فصار أن جميع الموجودات عليه تصفحها من بعد ذا تصفحاً على طريق الاعتبار في قدره وعظمه والتعجب من غريب صنعه وعجيب حكمه ودقيق علمه فيبين له في أقل الأشياء الموجودة فضلاً عن أكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما تقضي منه كل العجب وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار في غاية الكمال وفوق الكمال ، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ».

ثم تأمل في جميع أصناف الحيوان كيف أعطى كل شيء خلقه ثم هداه لاستعماله فلولا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التي خلقت له في وجوه المنافع المقصودة بها لما انتفع بها الحيوان ، وكان كلاً عليه فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء وأرحم الرحماء.

ثم إنه مهما عرضت من موجودات له حس أو بهيمة أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل — أي فضيلة كانت — تفكر وعجب من فيض ذلك الفاعل المختار جل جلاله ومن جوده ومن نعمه فعلم أن الذي هو في ذاته أعظم منه وأكمل

وأتم وأحسن وأبهى وأجل وأدوم وأنه لا نسبة لهذه إلى تلك فمن يتتبع صفات الكمال كلها فيرجعه بصيرته عنه ويرى أنه أحق بها من كل ما يوصف بها دونه

وتتبع صفات النقص كلها فيراه بريئاً منها ومنزهاً عنها وكيف لا يكون بريئاً منها وليس معنى النقص إلا العدم المحض أو ما يتعلق بالعدم ، وكيف يكون العدم تعلق أو تلبس بمن هو الموجود المحض الواجب الوجود بذاته المعطى لكل ذي وجود وجوده ، فلا وجود إلا هو فهو الوجود وهو الكمال وهو التام وهو الحسن وهو البهاء وهو القدرة وهو العلم وهو وهو وهو وما كل شيء هالك إلا وجهه .

فانتهت به المعرفة إلى هذا الحد على رأس خمسة أسابيع من منشئه وذلك خمسة وثلاثون عاماً وقد رسخ في قلبه من أثر هذا العلم ما شغله عن الفكرة في كل شيء إلا فيه وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء من الأشياء إلا ويرى فيه أثراً صنعة من حبيبه فيستقل بفكره على العبور إلى الصانع ويترك مصنوعه حتى اشتد شوقه إليه وارتفع قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس وتعلق بالعالم الأرفع المعقول

فلما حصل له العلم بهذا الموجود وهو كان الوجود الذي لا سبب لوجوده وهو سبب لوجود جميع الأشياء أراد أن يعلم بأي شيء حصل له هذا العلم وبأي قوة أدرك هذا الوجود فتصفح جوارحه كلها وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى أنها كلها لا تدرك شيئاً إلا جسماً أو ما هو في جسم وذلك أن السمع إنما يدرك المسموعات وهي ما تحدث من تموج الهواء عند تصادم الأجسام والبصر إنما يدرك الألوان والشم يدرك الروائح والذوق يدرك الطعوم واللمس يدرك الأمزجة والصلابة واللين والخشونة والملاسة وكذلك القوة الخيالية لا تدرك شيئاً إلا أن يكون له طول وعرض وعمق وهذه المدركات كلها من صفات الأجسام وليس لهذه الحواس إدراك شيء سوى ذلك لأنها قوى شائعة في الأجسام ومنقسمة بانقسامها

فهى بذلك لا تدرك إلا جسماً منقسماً ، لأن هذه القوة إذا كانت شائعة فى شىء منقسم فلا محالة إذا أدركت شيئاً من الأشياء فإنه ينقسم بانقسامه وبدون كل قوة فى جسم فإنها لا محالة لا تدرك إلا جسماً أو ما هو فى جسم وقد تبين أن هذا الموجود واجب الوجود برىء من صفات الأجسام من جميع الجهات فيلزم لا سبيل إلى إدراكه إلا شىء ليس بجسم ، ولا هو قوة فى جسم ولا تعلق له بوجه من الوجوه بالأجسام ولا هو داخل فيها ولا خارج عنها ولا متصل بها ولا منفصل عنها . وقد كان تبين له أنه أدركه بذاته ورسخت المعرفة به عنده فتبين له بذلك أن ذاته التى أدركه بها أمر غير جسمانى لا حظ له فيه شىء من صفات الأجسام . وأن كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسميات فليست حقيقة ذاته وإنما حقيقة ذاته ذلك الشىء الذى أدرك به الموجود الحق واجب الوجود .

فلما علم أن ذاته ليست هذه المتجسمة التى يدركها حواسه وحيط بها أدبته هذه عنده بالجملة جسمه وجعل يتفكر فى بقية البدن الشريفة التى أدرك بها ذلك الموجود الشريف واجب الوجود ونظر فى ذاته تلك الشريفة هل يمكن أن تبيد أو تفسد وتضمحل أو هى دائمة البقاء ؟ فرأى أن الفساد والاضمحلال إنما هو من صفات الأجسام التى تخلع صورة وتلبس أخرى مثل الماء إذا صار هواء والهواء إذا صار ماء والماء إذا صار تراباً والرماد والتراب إذا صار نباتاً فهذا هو معنى الفساد

وأما الشىء الذى ليس بجسم ولا يحتاج فى قوامه إلى الجسم وهو مبرأ بالجملة من الجسميات فلا يتصور فساده البتة .

فقد ثبت له أن ذاته الحقيقية لا يمكن فسادها أبداً ثم كيف يكون ذلك إذا اطرحت البدن وتخلت عنه . وقد كان تبين له أنها لا تطرحه إلا إذا لم يصح له ما تصبح جميع القوى المدركة فرأى أن كل واحدة منها تارة تكون مدركة بالقوة وتارة تكون مدركة بالفعل مثل العين فى حال تغمضها وإذا غمضها عن المبصر فإنها تكون مدركة بالقوة ومعنى مدركة بالقوة أنها لا تدرك الآن وتدرك فى المستقبل

وفى حال قبحه واستحالة البصر تكون مدركة بالفعل — ومعنى مدركة بالفعل أنها الآن تدرك . وكذلك كل واحدة من هذه القوى تكون مدركة بالقوة وتكون مدركة بالفعل وكل واحدة من هذه القوى إن كانت لم تدرك قط بالفعل فهى ما دامت بالقوة لا تتشوق إلى إدراك الشيء المخصوص بها لأنها لم تعرف به بعد مثل من خلق مكفوف البصر وإن كانت قد أدركت بالفعل مرة ثم صارت بالقوة فإنها ما دامت بالقوة تشتاق إلى الإدراك بالفعل لأنها قد تعرفت بذلك المدرك وتعلقت به وحنت إليه مثل من كان بصيراً ثم عمى فإنه لا يزال يشتاق إلى المبصرات .

وبحسب ما يكون الشيء المدرك أتم وأعلى وأحسن يكون التشوق إليه أكثر والألم لفقده أعظم وذلك كان ما من فقد بصره بعد الرؤية أعظم من ألمه بفقد شمه بعد الأشياء التى يدركها بصره ثم وأحسن من التى يدركها الشم فإن كل الأشياء شيء لا نهاية لكماله ولا غاية لحسنه وجماله وبهائه ، وهو فوق الكمال والبهاء والحسن وليس فى وجود كمال ولا حسن ولا بهاء ولا جمال إلا صادر من جهته وفائض من قبله . فمن فقد إدراك ذلك الشيء بحاسة تعرف به فلا محالة أنه ما دام فاقداً له يكون فى آلام لا نهاية لها كما أن من كان مدركاً له على ما ينبغى فإنه يكون فى لذة لا انقضاء لها وسعة لا غاية وراءها وبهجة وسرور لا نهاية لهما .

وقد كان تبين لك الموجود واجب الوجود منعوتاً بوصف الكمال كله ومبرءاً عن صفات النقص وترى منه وبين الشيء الذى به يتوصل إلى إدراكه أمر لا شبه الأجسام ولا يفسد بفسادها فظهر بذلك أن من كانت له من هذه الآلات المعدة مثل هذا لإدراك فإنه إذا اطرح البدن بموت فإنه أن يكون فعل ذلك فى مدة بصيرته بالبدن ، تعرف فقد منه الموجود واجب الوجود ولا اتصل به ولا سمع عنه فهذا إذا فارق البدن لا تشتاق إلى ذلك الموجود ولا تألم بفقده .

وأما جميع القوى الجسمانية فإنها تبطل ببطلان الجسم فلا تشتاق أيضاً إلى مقتضيات تلك القوى ولا تحن إليها ولا تألم بفقدها ، وهذه حال من لم تكن نفسه

كلها ، سواء كانت من صورة الإنسان أو غيرها . وإما أن يكون قبل ذلك — فى مدة تصريفه للبدن — وقد تعرف بهذا الموجود وعلم ما هو عليه من الكمال والعظمة والسلطان والقدرة والحسن إلا أنه أعرض عنه واتبع هواه حتى وافته منيته وهو على تلك الحال فيحرم المشاهدة وعندها الشوق إليها فيبقى فى عذاب طويل وآلام لا نهاية لها . فإما أن يتخلص من تلك الآلام بعد جهد طويل ويشاهد ما تشوق إليه قبل ذلك وإما أن يبقى فى آلامه تلك سرمدياً بحسب استعداده لكل واحد من المعذبين فى جهنم الحسية . وأما من عرف بهذا الموجود الواجب الوجود قبل أن يفارق البدن وقبل تكميله عنه وأثره الفكرة فى جلاله وحسنه وبهائه ولم يعرض عنه حتى وافته منيته ، وهذا على حال من الإقبال والمشاهدة بالفعل ، فهذا إذا فارق البدن بقى فى لذة لا نهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب ويزول عنه ما تقتضيه هذه القوة الحسية من الأمور الحسية التى هى — بالإضافة إلى تلك الحال — آلام وشرور وعوائق .

فقد تبين أن كمال كل نفس إنسانية هو تشاهده ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى توافيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل فتصل لديه دون أن يتخللها ألم .

وإليه أشار جنيد شيخ الصوفية ومعلمهم عند موته بقوله لأصحابه « هذا وقت يؤخذ منه » يشير إلى أن كل ما يشغل عن هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه إعراض فكل يلازم الفكرة فى ذلك الموجود كل ساعة فما هو إلا أن يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات أو يحرك سمعه صوت بعض الحيوان أو يعترضه خيال من الخيالات أو يبتلى فى أحد أعضائه أو تصيبه الجوع أو العطش أو البرد أو الحر أو يحتاج إلى القيام بدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عن كل فيه ويتعذر عليه

الرجوع إلى ما كان عليه من حال المشاهدة إلا بعد جهد .

وكان يخاف أن تفجأه منيته وهو فى حال الإعراض فيفضى إلى الشقاء الدائم وألم العذاب .

فلما هداه الله تعالى وأعياه الدواء الجميل يتصفح أنواع الحيوانات كلها وينظر أفعالها وما تسعى فيه لعله يظفر فى بعضها أنها شعرت بهذا الموجود وجعلت تسعى نحوه فيتعلم منها ما يكون سبب نجاته . فرآها كلها إنما تسعى فى تحصيل عدائها ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح والاستظلال والاستدفاء وتجد فى ذلك بكلها وبجوارحها إلى حين فنائها وانعدامها بالموت . ولم يرشئ منها ينحرف عن هذا الرأى ولا يسعى لغيره فى وقت من الأوقات فدل له بذلك أنها لم تشعر بذلك الموجود ولا اشتاقت إليه ولا تعرفت به بوجه من الوجوه وأنها كلها صائرة إلى العدم أو إلى حال شبيه بالعدم .

فلما حكم بذلك على الحيوان علم أن الحكم به على النبات أولى إذ ليس للنبات من الإدراكات إلا بعض ما للحيوان .

وإذا كان الأمر كذلك فإدراكه بعيد فى هذه المعرفة فالأنسب به كما أحرى أن لا يصل مع أنه رأى نصب أن أفعال النبات كلها لا تتعدى النماء والتوليد .

ثم إنه بعد ذلك نظر إلى الكواكب والأفلاك فرآها كلها مستمرة الحركات جارية على نسق واحد شديدة محكمة بعيدة عن قبول التغير والفساد فحدس حدساً قوياً أن هذه ذوات سوى أجسامها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وأن تلك الذوات العارفة ليست بأجسام ولا منطبعة فى أجسام مثل ذاته هو العارفة وكيف لا تكون لها مثل تلك الذوات البريئة عن الجسمانية ويكون لمثله هو على ما به من الضعف وشدة الاحتياج إلى الأمور المحسوسة وأنه من جملة الأجسام الفاسدة ؟ ومع ما به من النقص فلم يعقه ذلك عن أن تكون ذاته شيئاً بريئاً عن الأجسام لا تفسد فبين به بذلك أن الأجسام السماوية أولى بذلك وعلم أنها تعرف ذلك

الموجود الواجب الوجود وتشهده على الدوام بالفعل لأن العوائق التي قطعت به هو عن دوام المشاهدة من العوارض المحسوسة لا يوجد مثلها للأجسام السماوية

ثم إنه فكر ـ اختص هو من بين سائر أنواع الحيوان بهذه الذات التي أشبه بها الأجسام السماوية وقد كان تبين له أولاً من أمر العناصر واستحالة بعضها إلى بعض وأن جميع ما على وجه الأرض لا يبقى على صورته بل الكون والفساد متعاقبان عليه أبداً وأن أكثر هذه الأجسام مختلطة مركبة من أشياء متضادة وذلك يؤول إلى الفساد وأنه لا يوجد منها شيء صرفاً وما كان منها قريباً من أن يكون صرفاً خالصاً لا شائبة فيه فهو بعيد عن الفساد جداً مثل جسد الذهب والياقوت وأن الأجسام السماوية بسيطة صرفة ولذلك هي بعيدة عن الفساد والتغير لانتفاء علتهما وتبين له هنالك أيضاً أن جميع الأجسام التي في عالم الكون والفساد منها ما تقوم حقيقته بصورة واحدة فرادة على معنى الجسمية وهذه هي الأسطقسات[1] الأربعة ومنها ما تقوم حقيقته بأكثر من ذلك كالحيوان والنبات فما كان قوام حقيقته بصور أقل كانت أفعاله أقل وبعده عن الحياة أكثر، فإن عدد الصور التي بها يكمل فيه بدن الحياة صرفاً وصار في حال شبيهة بالعدم وما كان قوام حقيقته بصور أكثر كانت أفعاله أكثر ووجوده في حال الحياة أتم وإن كانت تلك الصور بحيث لا سبيل إلى مد قسم مدتها التي اختصت بها كانت الحياة حينئذ في غاية الظهور والدوام والقوة فالشيء المصور بصورة واحدة هو الحيواني مدة ولا شيء من الحياة فيه وهي شبيهة بالعدم والشيء المقوم بصورة واحدة هو الأسطقسات الأربعة وهي في أدنى مراتب الوجود في عالم الكون والفساد ومنها تتركب الأشياء ذوات الصور الكثيرة. وهذه الأسطقسات ضعيفة الحياة جداً إذ ليست تتحرك إلا حركة واحدة وإذ كانت ضعيفة الحياة لأن لكل واحد منها ضداً

(١) الأسطقس كلمة يونانية تعني عنصر. وكانوا يعتقدون أن الله مكون من عناصر أربعة وهي الماء والتراب والهواء والنار. وهذه العناصر الأربعة تسمى الأسطقسات الأربعة

ظهر العدد يخدمه فى متمنى صيغته ويطلب أن يغير صورته فوجوده لذلك غير متمكن وحيوانه صعيفه وليست أقوى حدة منه والحيوان أظهر حياة منه .

وذلك أن ما كان من هذه المركبات عسر عليه صعة اسطقس واحد فقوته فيه يعسر صنع الأسطقسات الباقية وبعض قواها وتصير ذلك مركب فى حكم الأسطقس الواحد فلا يستهل لأجل ذلك من الحياة إلا شيئاً يسيراً فمن ذلك الإسطقس لا يستهل من الحياة إلا يسيراً جميعه وما كان من هذه المركبات لا يعسر عليه طبيعة أسطقس واحد منها دون الأسطقسات تكون فيه منعدته متمكنة فيه لا يبطل أحدها قوة الآخر لأكثر ما يبطل ذلك الآخر قوته من بعض بعضها فى بعض فعلاً منسوباً فلا يكون فعل أحد الأسطقسات أظهر فيه ولا يحسون عليه أحدها فيكون بعد الشبه من كل واحد من الأسطقسات فكأنه لا مضادة بصورته فيسهل للحياة بذلك ومتى زاد هذا الاعتدال وكان تم واحد من الأطراف كان بعده عن أن يوجد له عدد أكثر وكانت حياته أكمل .

ولما كان الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب شديد الاعتدال لأنه ألطف من الأرض والماء وأغلظ من النار والهواء صار فى حكم الوسط وهو بصدده شىء من الأسطقسات مصدة بينه ، فاستعد بذلك لصورة الحيوانية وذلك أن الواجب على ذلك أن يكون أعدل ما فى هذه الأرواح الحيوانية مستعداً لأتم ما يكون من الحياة فى عامة الكون والفساد وأن يكون ذلك الروح قريباً من أن يقبل أنه لا ضد لصورته فيشبه بذلك هذه الأجسام السماوية التى لا ضد لصورها ويكون روح ذلك الحيوان وكأنه وسط بالحقيقة بين الأسطقسات التى لا تتحرك إلى جهة العلو على الإطلاق ولا إلى جهة السفل بل لو أمكن أن تجعل فى وسط نفسه التى بين مركز وأعلى ما تنتهى إليه النار فى جهة العلو ولا تصير عليه فساد شىء هناك وهو يطلب الصعود ولا يحسون ولو تحرك فى مكان تحرك حول وسط كما تتحرك الأجسام السماوية وهو يتحرك فى الوضع بالتحرك على نفسه وكان كروى الشكل بد لا يمكن غير ذلك فيه

هو شديد الشبه بالأجسام السماوية .

ولما كان قد اعتبر أحوال الحيوان ولم ير فيه ما يظن به أنه شعر بالموجود الواجب الوجود وقد كان عرف من ذاته أنه قد شعرت به فطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالأجسام السماوية كلها وبين له أنه نوع مباين لسائر أنواع الحيوان وأنه إنما خلق خلقة أخرى وأعد لأمر عظيم لا يعدله شيء من أنواع الحيوان وكفى به شرفاً أن يكون أحس حواسه — وهو الحس الذي به أشبه الأشياء بالجواهر السماوية — الخارجة عن عالم الكون والفساد المنزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغير وأما أشرف حواسه فهو الشيء الذي به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشيء الذي أشرف به هي لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشيء مما توصف به الأجسام ولا يدرك بشيء من الحواس ولا تتخيل ولا يتوصل إلى معرفته بالله سواه ولا يتوصل به إليه هو يعرف ويعرف ويعرف وهو العلم والعلم لا يتباين في شيء من ذلك إذ التباين والانفصال من صفات الأجسام والواحد ولا جسم هناك ولا صفة جسم ولا لاحق جسم .

فلما تبين له الوجه الذي اختص به من بين سائر أصناف الحيوان مشابهة الأجسام السماوية رأى أن الواجب عليه أن يتقيمه ويحاكي فعله ويشبه به جهده . وكذلك رأى أنه جزء الأشرف الذي به عرف الموجود الواجب الوجود فيه شبه ما منه من حيث هو مباين عن صفات الأجسام كان الواجب الوجود مباين عنها ورأى أيضاً أنه يجب عليه أن يسعى في تحصيل صفاته لنفسه من أي وجه أمكن وأن يتخلق بأخلاقه ويقتدي بأفعاله ويجد في تقييد إرادته وتسيير الأمر له ويرضى بجميع حكمه رضاً من قبله ظاهراً وباطناً بحيث يسره وإن كان مؤلماً لجسمه وضاراً به ومتلفاً لنفسه بالجملة

وكذلك أيضاً رأى أن فيه شبهاً من سائر أنواع الحيوان جزء الحسي الذي هو من عالم الكون والفساد وهو الذي نظم التكثيف الذي نظمه أنواع المحسوسات من مطعوم ومشروب ومنكوح ورأى أيضاً أن ذلك الذي لما يخلق

له عشاً ولا قرن به لأمر باطل وأنه يجب عليه أن يتفقده ويصحح من شأنه وهذا التفقد لا يكون منه إلا بعمل يشبه فعل سائر الحيوان فاتجهت عنده الأعمال التي يجب عليه أن يفعلها نحو ثلاثة أغراض :

إما عمل يتشبه به بالحيوان غير الناطق

وإما عمل يتشبه بالأجسام السماوية

وإما عمل يتشبه به بالموجود من حيث الوجود

فالتشبه الأول :

يجب عليه من حيث هو البدن فقط ذو الأعضاء متممه والقوى المختلفة ومدبر النفسية .

والتشبه الثاني :

يجب عليه من حيث له الروح الحيواني الذي يمكنه بحس وهو مبدأ لسائر البدن ولما فيه من القوى

والتشبه الثالث :

يجب عليه من حيث هو هو أي من حيث هو الذات التي بها عرف ذلك الموجود لواجب الوجود

وكان أولا قد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء إنما هما في دوام المشاهدة لهذا الموجود واجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين .

ثم إنه طرق الوجه الذي يأتي به هذا المرام فاحتاج له النظر أنه يجب عليه الاعتناء في هذه الأفعال الثلاثة من التشبهات

أما التشبه الأول

فلا يحصل له به شيء من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق دونها إذ هو تصرف في الأمور المحسوسة والأمور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك

المشاهدة وإنما احتيج إلى هذا النشء لاستدامة هذا الروح الحيوانى الذى تحصل به المشاهدة الثانى بالأجسام السماوية . فالضرورة تدعو إليه من هذا الطريق ولو كان لا يخلو من تلك المضرة .

وأما النشء الثانى :

فتحصل به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام لكنها مشاهدة يخالطها شوب إذ من يشاهد ذلك مخلوق من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته وتفنى به حسه بين بعد هذا .

وأما النشء الثالث

فتحصل به المشاهدة المحضة والاستغراق المحض الذى لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلا إلى الموجود واجب الوجود . والذى يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت .

وكذلك سائر الموجودات كثيرة كانت أو قليلة إلا الذات الواحد الحق الواجب الوجود جل وتعالى وعز

فما من موجود مصور به لا يقضى هو هذا النشء الثالث وأنه لا يحصل به إلا بعد الموت والأخذ مدة طويلة فى النشء الثانى وأن هذه المدة لا بد منه إلا النشء الأول وعلم أن النشء الأول وإن كان ضروريا فيه عائق بسا هو بين كان معد بالعرض لا بالذات لكنه ضرورى - أراد منه أن لا يخلو هذا حظ من هذا النشء الأول إلا بضرورة وهى الكدرة التى لا بد منها بروح الحيوانى نفس منها .

ووجد ما تدعو إليه الضرورة فى هذا الروح أمران

أحدهما :

ما يتولد به من داخل ويخلف عليه بدل ما يتحلل منه وهو الغذاء

والآخر .

ما يقيه من حرج و يدفع عنه وحوه الأذى من البرد والحر والمطر ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك ورأى أنه إن حول ضرورية من هذه حرافاً كيفما اتفق ربما وقع في السرف وأحد فوق الكفاية فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر رأى أن الحزم له أن يفرض نفسه فيها حدوداً لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها وبين له أن الفرض فيجب أن تكون في جنس ما يتعدى به وفي شيء يكون وفي مقداره وفي عدة التي تكون بين العودات إليه قصر أولا في أجناس ما يتعدى فرآها ثلاثة أصناف .

ثم نظر ما يكمل عند صحته وما يبقيه على غاية تمامه وهي أصناف الفعول الرصه للتي يتكمل الاعتدال بها

وأما تراث البدن الذي قد تم ونتاهى وأخرج بزوه ليتكون منه آخر من نوعه حفظاً له وهي أصناف الفواكه رطبها ويابسها .

وإن حيوان من الحيوانات التي تعدى بها بهيمية وبهيمة البحرية .

وكان قد صح عنده أن هذه الأجناس كلها من فعل ذلك الموجود الواجب الوجود الذي بين له أن سعادته في القرب منه وتشبه به ولا محالة أن الاعتداء بها تمنعه عن كماله ويحول بينه وبين الغاية القصوى المقصودة بها فكان ذلك اعتراض على فعل الفاعل وهذا الاعتراض مضاد لما يظنه من القرب منه والتشبه به ورأى أن الصواب كان له لو أمكن أن يمنع عن الغذاء جملة واحدة لكنه لما لم يمكنه ذلك ورأى أنه إن امتنع عنه آل ذلك إلى فساد جسمه فيكون ذلك اعتراض على فاعله أشد من الأول إذ هو أشرف من ذلك الأثر . لأخر التي يكون فسادها سبباً لفساده فيستسهل أيسر الضررين ويسمح في أحب الاعتراضين ورأى أن يحد من هذه الأجناس إذا عدمت أو يسير له بقدر الذي يتبين له بعد هذا .

فلما إن كانت كلها موجودة فينبغي له حينئذ أن نشتت و يحير منها ما يكمل

فى أحده كبير حراص على فعل الدعل وذلك مثل حوم الفواكه التى قد سهت فى القيب وصبح ما فيه من البذر لتوليد المثل على شرط التحفظ بذلك البذر بأن لا يأكله ولا يهشمه ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات مثل الصفاة[1] والسبخ ونحوها فإن تعذر عليه وجود مثل هذه الثمرات ذات اللحم العذى كالتفاح والكمثرى والأجاص ونحوها . كان له عند ذلك أن يأخذ ما من الثمرات التى لا يغتذو منها إلا نفس البذر كالجوز والقسطل[2] وما من البقول التى تفصل بعد حد كالها

والشرط عليه فى هذين أن يقصد أكثرها وجوداً وقواها توليداً وأن لا يستأصل أصولها ولا يعمى بذرها فإن عدم هذه فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه . والشرط عليه فى الحيوان أن يأخذ من أكثره وجوداً ولا يستأصل منه نوعاً بأسره .

هذا ما يؤدى فى حس ما يعتدى به

وأما المقدار فرأى أن يكون حسب ما يسد خلة الجوع ولا يزيد عليه .

وأما الزمان الذى بين كل عودتين فرأى أنه إذا أخذ حاجته من غذاه أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه حتى يتحفه ضعف يقطع به عن بعض الأعمال التى تجب عليه فى التشبه الثانى وهى التى يأتى ذكرها بعد هذا .

فأما ما تدعو إليه الضرورة فى بقاء الروح الحيوانى مما يقيه من خارج فكل الخطب فيه عليه يسير إذ كل مكتسب بالجهد وقد كان له مسكن يقيه مما يرد عليه من خارج فاكتفى بذلك ولم يزد الاشتغال به والتزم فى غذائه القوانين التى رسمها لنفسه وهى التى تقدم شرحها

ثم أخذ فى العمل الثانى وهو التشبه بالأجسام السماوية والاقتداء بها والتنقل لصفاتها وتتبع أوصافها فانحصرت عنده فى ثلاثة أضرب .

(١) الصفاة الحجر الصلب الشديد الذى لا ينبت

(٢) هو المسمى عند العامة بالبلوط

الضرب الأول .

أوصاف له بالإضافة إلى ما تحته من عالم الكون والفساد وهي ما تعطيه إياه من التسخين بالذات أو التبريد بالعرض والإضاءة والتلطيف والتكثيف إلى آخر ما تفعل فيه من الأمور التي بها يستعد لفيضان الصور الروحانية عليه من عند الفاعل الواجب الوجود .

والضرب الثاني .

أوصاف له في ذاته مثل كونه نفسانية وحية وناطقة مفارقة عن المادة وصدور الرحمن ومتحركة بالاستدارة بعضه على مركز نفسها وبعضها على مركز غيرها .

والضرب الثالث .

أوصاف له بالإضافة إلى الموجود الواجب الوجود مثل كونه تشاهده مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه وتشوق إليه وتتصرف بحكمه وتسعى في تسليم إرادته ولا تتحرك إلا بمشيئته وفي قبضته. فحصل يشبه بها جهده في كل واحد من هذه الأضرب الثلاثة

أما الضرب الأول . فمثل تشبه بها أن ترى نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان والنبات وهو يقدر على إزالته عنه إلا وتزيله . .

فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان مما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذي بحاجز لا يضر المؤذي وعدله بأسهل ما أمكنه ومتى وقع بصره على حيوان قد ارهقه صنع أو شك به نبات أو تعلق به شوك أو سقط في عينيه أو أذنيه شيء يؤذيه أو مسه ظمأ أو جوع تكفل بإزالة ذلك كله عن جسده وأطعمه وأسقاه

ومتى وقع بصره على ماء يسيل إلى سبخ نبات أو حيوان وقد عاقه عن ثمره ذلك عائق من حجر سقط فيه أو جرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه وما زال يعمل في هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه النهاية .

وأما الضرب الثاني فكان تشبهه بما فيه أن ألزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات وتنظيف ما كان من أظفاره وأشعاره ومعاصمه[1] بدنه وتطييبه بما أمكنه من طيب النبات وصوف الدواهن العطرة وعهد نفسه بالتطيب حتى كان يتلألأ حسناً وجمالاً ونظافة وطيباً.

والزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة فكرة كان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها ويسبح بأكثرها ومرة كان يطوف بنفسه أو بعض أعضائه دواراً معدودة بمشيٍ وبمراهرة ومرة يدور على نفسه حتى يغشى عليه.

وأما الضرب الثالث فكان تشبهه بما فيه أن كان يلازم الفكرة في ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه ويسد أذنيه ويضرب جهده على منع الخيال ويروم بمنع طاقته أن لا يفكر في شيء سواه ولا يشرك به أحداً ويستعين على ذلك بالاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها. فكان إذا اشتد في الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التي تحتاج إلى الآلات الجسمانية وقوى فعل ذاته التي هي بريئة من الجسم — فكانت في بعض الأوقات فكرته قد تخلص عن الثوب ويشاهد به الموجود الواجب الوجود ثم تكر عليه القوى الجسمانية فيفسد عليه حاله وتردده إلى أسفل السافلين فيعود من ذي قبل فربما ضعف فقطع به عن غرضه تناول بعض الأغذية على الشرائط المذكورة.

ثم ينتقل إلى شأنه من التشبه بالأجسام السماوية بالأضرب الثلاثة المذكورة وداوم على ذلك مدة وهو يجهد قواه الجسمانية ويجهدها ويبارعها ويسارعها في الأوقات التي يكون به عنها الصبر وتنحسم فكرته عن الثوب يلوح له شيء من أحوال

---

(١) في الأصل وكل مجمع قدره في الجسم

أهل التشبيه الثالث ثم جعل يطلب التشبيه الثالث ويسعى في تحصيله فيقطع في صفات الموجود الواجب الوجود .

وقد كان بين له أثناء نظره العلمي قبل الشروع في العمل أنها على صنفين إما صفة ثبوت كالعلم والقدرة والحكمة وإما صفة سلب كتنزهه عن الجسمية ونواحقها وما يتعلق بها وما على نعته

وأن صفات الثبوت يشترط فيها التنزيه حتى لا يكون فيها شيء من صفات الأجسام التي من خاصتها الكثرة فلا تكثر ذاته بهذه الصفات الثبوتية ثم ترجع كلها إلى معنى واحد هي حقيقة ذاته فجعل يبحث كيف يشبهه في كل واحد من هذين النعتين .

أما صفات الإيجاب فقد علم أنها كلها راجعة إلى حقيقة ذاته وأنه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه بل الكثرة من صفات الأجسام وعلم أن علمه بذاته ليس معنى زائداً على ذاته بل ذاته هي علمه بذاته وعلمه بذاته هو ذاته بعينها إن أمكنه هو أن يعلم ذاته فبمثل ذلك فليعلم سائر ما يعلم فإنه ليس يدل على ذاته بل هو هو فرأى أن التشبيه في صفات الإيجاب هو أن يعلم فقط دون أن يشك بذلك شيئاً من صفات الأجسام . فاعتقد بذلك

وأما صفات السلب فإنها كلها راجعة إلى تنزيهه عن الجسمية . فجعل يصرح بوصف الجسمية عن ذاته . وكان قد صرح منها كثيراً في جملته المتقدمة التي كان يتحوب بها التشبيه بالأجسام السماوية إلا أنه بقي منها أشياء كثيرة كالحركة الاستدارية — والحركة من أخص صفات الأجسام وكالاغتذاء الذي للحيوان والنمو وترجمة ما . والاهتمام بإزالة هذه وتفهم هذه أخص من صفات الأجسام فلا يرها أولاً إلا قوة هي جسمية ثم يتدبر في أمرها فقوة جسمية أيضاً فاعتد في صرح ذلك كله عن نفسه بأنه هي بحملتها لا يليق بهذه حالة التي نطلبها الآن . وما زال مقتصراً على السكوت في قصر معرفته مطرحاً عن نظره معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمية مجتمع الهم

والفكرة في موجود واجب الوجود وحده دون شركة ، فمتى سمح لخياله بسماح سواد صرده عن حياله جهده ، ودافعه وراض نفسه على ذلك ودأب فيه مدة طويلة بحيث تمر عليه عدة أيام لا يعدى فيها ولا يتحرك .

وفي خلال تلك المجاهدة هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات إلا ذاته فإنها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الأول الحق واجب الوجود فكان يسوؤه ذلك ويعلم أنه شوب في مشاهدة الخصوصة وشركة في الملاحظة وما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى فني له ذلك وغابت عن ذكره وفكره السماوات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد والتي هي الذوات العارية للموجود وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منثوراً ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود ، وهو يقول بقوله الذي ليس معنى راجعاً على ذاته . . « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » ، فيفهم كلامه ويسمع نداءه ولم يسمعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم واستغرق في جملته هذه وشاهد بلا عين رأت . ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فلا تطلق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشر فإن كثيراً من الأمور التي قد تقصر على قلوب البشر بعضها وصفها فكيف بأمر لا سبيل إلى حضوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره ؟ ولست أعني بالقلب جسم القلب ولا الروح التي في تجويفه بل أعني به صورة تلك الروح القائضة بقواها على بدن الإنسان فإن كل واحد من هذه الثلاثة قد يقال له « قلب » ولكن لا سبيل لخطور ذلك الأمر على واحد من هذه الثلاثة ولا يتأتى التعبير إلا عما خطر عليها .

ومن رام التعبير عن ذلك الحال فقد رام مستحيلا وهو بمثابة من يريد أن يذوق الألوان المصنوعة من حيث هي الألوان ويطلب أن يكون السواد مثلاً حلواً أو حامضاً

لكننا مع ذلك لا نخليك عن إشارات نومئ بها إلى ما شاهده من بحث ذلك المقام على سبيل ضرب المثال لا على سبيل قرع باب الحقيقة إذ لا سبيل إلى التحقيق عن ذلك المقام إلا بالوصول إليه

فأصغ الآن بسمع قلبك وحدق ببصر عقلك إلى ما أشير به إليه علك أن تحد منه هدى يلقيك على جادة الطريق وشرعي عليك أن لا تعجل مني في هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الأوراق ، فإن المحل ضيق والتحكم بالأغلط على أمر نفيس من شأنه أن يغلط به حصر .

فأقول إنه لما فني عن ذاته وعن جميع الموجودات ورأى في الوجود إلا الواحد الحي القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد إلى ملاحظة الأغيار عند ما أفاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر حظر عليه أنه لا ذات لما يغايره من ذات الحق تعالى وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه غاير ذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة بل ليس شيء إلا ذات الحق وأن ذلك نظير نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فيراه يظهر فيها

فإنه وإن نسب إلى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حصول ذلك الجسم ولم يزد عند معيته .

ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله ورد عنه الجسم ذلك القبول ولم يكن له معنى وتقوى عنده هذا الظن عند كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تكثر فيه من الوجوه وأن عينه بذاته هو أنه نصيب فيه عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصلت عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم بخصلت عنده الذات . وهذه الذات لا تحصل إلا عند ذاته ونفس حصولها هو الذات فإنها هو الذات نفسها .

وكذلك جميع الذوات المفارقة لمادة تلك الذات الحقة التي كان يراها أولا كثيرة وصارت عنده بعد الظن شيئاً واحداً . وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا أن تداركه الله برحمته و لاقاه بهدايته فعلم أن هذه الشبهة إنما ثارت عنده من تقاير طلمة الأجسام وكدورة المحسوسات فإن الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هي كلها من صفات الأجسام وتلك الذوات المفارقة العرية ذات الحق عز وجل لعزائها عن المادة لا يجب أن يقال إنها كثيرة ولا واحدة لأن الكثرة إنما هي بمغايرة الذوات بعضها بعض والوحدة أيضاً لا تكون إلا بالاتصال ولا يفهم شيء من ذلك إلا في المعنى المركبة متصلة بالمادة غير أن العبارة في هذا الموضع قد تضيق جداً لأنك إن عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا أوهم ذلك معنى الكثرة فيها وهي مرتفعة عن الكثرة وإن أنت عبرت بصيغة الإفراد أوهم ذلك معنى الاتحاد وهو مستحيل عليها وكأني بك قد وقفت على هذا الموضع من الحيرة التي تظم الشمس في عينيك بتحيرك في مسلكه جملة وقول قد فرطت في تدقيقك حتى أنك قد تخلصت عن عبارة العقلاء واطرحت حكم المعقول فإن من أحكام العقل أن الشيء إما واحد وإما كثير فيبتدئ في عونه ويكفك من غرب لسانه وليتهم نفسه ويعتبر بما المحسوس حتى ينتهي هو بين أطباقه بنحو ما اعتبر به حتى بن يقطان حيث كان يعبر فيه بحر آخر فيراه كثيراً كثيراً لا ينحصر ولا تدخل تحت حد ثم يعبر فيه بحر آخر فيراه واحداً .

وبقي في ذلك متردداً وهو يمكنه أن يقطع عنه أحد الوصفين دون الآخر

هذا فحكم المحسوس مشؤوم الجمع والإفراد وفيه عنهما حقيقته وفيه لانفصال والاتصال والتغير وبعدية والاتفاق والاختلاف فما ظنك بأمر الإلهي الذي لا يقبل فيه كل ولا بعض ولا ينطبق في أمره بلفظ من الألفاظ المسموعة إلا ويوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة فلا يعرفه إلا من شاهده ولا تنكشف حقيقته إلا لمن اتصل به .

وأما قوله « حتى انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول » فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه فإن العقل الذي يعنيه هو وأمثاله إنما هو القوة الناطقة التي تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتتصفح منها المعنى الكلي . والعقلاء الذين يعنيهم هم يسطرون بهذا النمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله فيبعد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها ويرجع إلى قريحته « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

فإن كنت ممن تقنع بهذا القدر من التلويح والإشارة إلى ما في العلم الإلهي ولا تحمل الغاصة من نفسك على ما جرت العادة بها في تحميله إياه فنحن نرشدك إلى ما شاهده « حي بن يقظان » في مقام الصدق الذي تقدم ذكره فنقول :

إنه بعد الاستغراق بحسه وتجريده لبه وتحقيقه للوصول شاهد الفلك الأعلى الذي لا جسم له ورأى ذاته مرتسمة عن ذات هي ذات الواحد الحق ولا هي نفس الفلك ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة من مرآتين متقابلتين فإنها ليست هي الشمس ولا المرآة ولا هي غيرهما .

ورأى ذات ذلك الفلك منزهة من الكيف والجهة والحس منحطة عن أن يوصف بشيء من ذلك ويدرك عن أن يكتسي بحرف أو صوت ورآه في غاية من البهجة والسرور والبهجة والفرح تشاهده ذات الحق جل جلاله .

وشاهد بعد ذلك الفلك الذي يليه وهو الفلك الكوكبي الثابتة ذاته عنه عن مادة أيضاً ليست هي ذات الواحد الحق ولا ذات الفلك الأعلى مفارقة ولا منه ولا هي غيرها .

وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة قد انعكست إليها الصورة من مرآة أخرى مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات أيضاً من البهاء والحسن والبهجة مثل ما رأى لتلك التي للفلك الأعلى .

وشاهد أيضاً للعبد الذى بلى هذا وهو فلك رحل ذات معرفة للمادة ليست هى شيئاً من الذوات التى شاهدها قبله ولا هى غيره وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة قد انعكست إليها الصورة من مرآة مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات أيضاً مثل ما رأى لما قبلها من البهاء واللذة .

وما زال يشاهد لكل فلك ذاتاً معارفة حديثة عن المادة ليست هى شيئاً من الذوات التى قبلها ولا هى غيرها وكأنها صورة الشمس التى تنعكس من مرآة على مرآة على رتب مرتبة بحسب ترتيب الأفلاك ، ويشاهد لكل ذات من هذه الذوات من الحسن والبهاء واللذة والفرح ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى أن انتهى إلى عالم الكون والفساد وهو جميعه تحت فلك القمر

فرأى له ذات حديثة عن المادة ليست شيئاً من الذوات التى شاهدها قبلها ولا هى سواها . وهذه الذات سبعون ألف وجه فى كل وجه سبعون ألف فم وفى كل فم سبعون ألف لسان تسبح بها ذات الواحد الحق وتقدسه وتمجده لا يفتر ورأى لهذه الذات التى توهم فيها الكثرة وليست كثيرة من الكمال واللذة مثل لدى رآه مما قبلها وكأن هذه الذات صورة الشمس التى تظهر فى هذه المخرج قد انعكست إليها الصورة من آخر مرآة التى انتهى إليها الانعكاس على الترتيب المتقدم من المرآة الأولى التى قابلت الشمس بعينها ثم شاهد نفسه ذاتاً معارفة لو حاز أن تتبعض ذات السبعين ألف وجه لقلنا إنها بعضها .

ولولا أن هذه الذات حدثت بعد أن لم تكن فقد إنها هى ولولا اختصاصها بمدة عند حدوثه فقد إنها لم تحدث وشاهد فى هذه المرتبة دوياً مثل دوى الأجرام كانت ثم اصمحلت ولأصداء لم تزل معه فى الوجود وهى من الكثرة فى حد بحيث لا تدرى إن حاز أن يقال لها كثيرة أو هى كلها متحدة إن حاز أن يقال لها واحدة .

ورأى لذاته ولتلك الذوات التى فى رتبته من الحسن والبهاء واللذة غير المتناهية

( ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يصفه الواصفون ولا يعقله إلا الواصلون العارفون .

وشاهد دواة كثيرة معرقة بعدة كأنها مرايا صدئة قد ران عليها الحبث وهي مع ذلك مستديرة للمرايا الصقيلة التي ارتسمت فيها صورة الشمس ، ومولية عنها وجوهها ورأى هذه الدويات من القبح والنقص ما لم تقع قط عليه ورآها في كلام لا ينقضي وحسرات لا تنسى قد أحاط بها سرادق العذاب وأحرقتها نار الحجاب وتشرت عساكير بين الارتماع والاعذاب وشاهد هذه دواة سوى هذه المعدنية يتم تصدأ وتتعقد ثم تسحل فتنشت فيها وأنعم النظر فيها فرأى هولا عظيماً وخطباً جسيماً وحلقاً حثة وأحكاماً بشعة . وتسوية ونحتاً وإنشاء ونسخاً فما هو إلا أن ثبت قليلاً فعادت إليه حواسه ونفسه من حيث ثبت التي كانت شبيهة بالغشي ورت قدمه على ذلك المقام ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الإلهي إذ لم يكن اجتماعهما في محل واحدة كضدين بل إذا ثبتت إحداهما أضمحلت الأخرى فبين ثبت : يظهر مما حكيته من هذه المشاهدة أن الدوات المدرقة إن كانت لجسم دائم الوجود لا يفسد كالأفلاك كانت هي دائمة الوجود وإن كانت لجسم يؤول إلى الفساد كالحيوان الناطق فسدت هي واضمحلت وبلاشت جسم ثبت له في مرآة الانعكاس فإن الصورة لا ثبات لها إلا بثبات المرآة فإذا فسدت المرآة صح فساد الصورة واضمحلت هي فأقول لك : ما شرعت في هذا العهد وحدت عن الربط أنه تقدم إليك أن محل العبرة هذا ضيق وأن لا تهبط على كل حال توهم غير الحقيقة وذلك الذي توهمه إنما أوقعك فيه أن حملت مثل والمثل به على حكم واحد من جميع الوجوه .

ولا ينبغي أن يفعل ذلك في أصناف المخلوقات المعتادة فكيف بها والشمس ونورها وصورتها وتشكلها ومرايا والصور الحاصلة فيها كلها أمور غير معرقة للأجسام

ولا قوامها إلا بها وفيها ؟ فلذلك افتقرت في وجودها إليها وبطلت بطلانها

وأما الموجودات الإلهية والأمور الربانية فهي كلها مرتفعة عن الأجسام والأجسامية ومبرهنة عن المادة عنها ، ولا ارتباط ولا تعلق بها ، وسموها بالإضافة إليها بطلان الأجسام أو جوهرها ووجودها أو عدمها وتقدسها ذات الواحد الحق الموجود الواجب الوجود الذي هو أولها ومبدؤها وسببها وموجدها وهو معطيها الدوام وبيدها البقاء والتسرمد ولا حاجة بها بل الأجسام محتاجة إليها ولو جاز عدمها لعدمت الأجسام فإنها هي مبادئها ، كما أنه لو جاز أن تعدم ذات الواحد الحق — تعالى وتقدس عن ذلك لا إله إلا هو — لعدمت هذه الموجودات كلها وعدمت الأجسام وعدم هذا العالم بأسره وما يتبعه موجود ، لكن مرتبط بعضه ببعض والعالم المحسوس وإن كان تابعاً للعالم الإلهي شبيه بظله وأحد لازميه منبعث عنه ويرجع منه فيه مع ذلك يستحيل فرض عدمه ، وهو لا محالة تابع للعالم الإلهي وإنما فساده أن يبدل لا أن يعدم بالجملة وبذلك نطق الكتاب العزيز حيث وقع هذا المعنى في تغيير الجبال وتصييرها كالعهن والناس كالفراش وتكوير الشمس والقمر وتسجير البحار يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فهذا القدر هو الذي أمكنني الآن أن أثبته إثبات من هو في مشاهدة الحق من بعض ما في ذلك العالم الكريم فلا تلتمس الزيادة عليه من جهة الأعداد فإن ذلك كالمتعذر .

وأما تمام حديثه

فإنه عطف على سياق الله تعالى وهو أنه لما عاد إلى العالم المحسوس وذلك بعد تحوله حيث حال سنّ تكاليف الحياة الدنيا وانتدب شوقه إلى الحياة القدسية تحمل يطلب العود إلى ذلك المقام بمحو الذي صنعه أولاً حتى وصل إليه بأيسر من سعيه الذي وصل به أولاً ودام فيه مدة أطول من الأولى .

ثم عاد إلى عالم الحس ، ثم تكلف الوصول إلى مقامه بعد ذلك فكان أيسر

عليه من الأولى والثانية وكان دوامه طول وصال الوصول إلى ذلك لقاه الكريم يريد عليه سهولة والدوام يريد فيه طولاً بعد مدة حتى صار بحيث يصل به متى شاء ولا ينفصل عنه إلا متى شاء فكان ملازماً مقامه ذلك ولا ينثني عنه إلا لضرورة بدنه متى كان قد قلق حتى كان لا يوجد في منه .

وهو في ذلك كله يتمنى أن يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذي يدعوه إلى مفارقة مقامه ذلك فيخلص إلى بدنه خلصاً ذاتاً ويرتاح عن بدنه من لأم عند الإعراض عن مقامه ذلك إلى ضرورة البدن

وبقي على حاله تلك حتى أتى على سبعة وتسعين من عمره وذلك خمسون عاماً وحينئذ انفتحت له محجة أنس وكان من قصته ما سأتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى .

ذكروا أن حيرة قريبة من الحيرة التي ولد بها « حي بن يقظان » على أحد القولين المختلفين في صفة مدينة الملك وهي مملوءة من مثل الصنوبر مأخوذة عن بعض الأنبياء متقدمين صلوات الله عليهم وكانت مملوءة محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالأمثال المصورة به التي تعطي حالات تلك الأشياء وهيئات صورها في المحسوس حسبما حررت به العادة في محاكاة جميع الموجودات بحيرة متقوى وتعظم حتى قاربت ملكها وحمل الناس على التزامه

وكان قد اتخذ تلك الحيرة قوم من أهل بعض ضواحيها وعمارة في الجبل يسمى أحدهم أبسالا والآخر سلامان[1] فتبعهما ثلاث مئة وقيلا هم خمس قرون واحد على أمتهما بالغرام جميع شرائعهما والموصية على جميع أعمالهما . وصطحبا على ذلك

(١) أصل قصة سلامان وأبسال يونانية ، وقد نقلها جميع [illegible] ابن سينا قصة بهذا الاسم في هذه الإشارات [illegible] وكان [illegible] وقد ترك في حيرة أخيه [illegible]

وكان يتفقهون في بعض الأوقات فيما ورد من ألفاظ تلك الشريعة في صفة الله عز وجل وملائكته وصفات المعاد والثواب والعقاب فأما أسال منهما فكان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعاني الروحانية وأطمع في التأويل وأما سلامان صاحبه فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر وأشد بعداً عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل وكلاهما مجد في الأعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى وكان في تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على أن الفوز والنجاة فيهما وأقوال أخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة .

فتعلق أسال بطلب العزلة ورجح القول فيها لما كان في طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعاني . وأكثر ما كان يتأتى له أمله من ذلك بالانفراد .

[illegible]

وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ورجع القول فيها لما كان في طبعه من الحبس عن الفكرة والتصرف . فكانت ملازمته الجماعة عنده مما يدرأ الوسواس ، ويزيل الطنون المعترضة ويبعد من همزات الشيطين .

وكان اختلافهما في هذا الرأي سبب افتراقهما . وكان أسال قد سمع عن الجزيرة التي ذكرت حي بن يقظان تكون بها وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل وأن الانفراد بها يتأتى بتيسير وتجمع على أن يرتحل إليها ويتنزل الناس بها بقية عمره فجمع ما كان له من مال واشترى بعضه مركبا تحمله إلى تلك الجزيرة وفرق باقيه على المساكين وودع صاحبه سلامان وركب مع البحر فحمله الملاحون إلى تلك الجزيرة ووصفوه بسهلها وانصرفوا عنه .

فبقي أسال بتلك الجزيرة يعبد الله عز وجل ويعظمه ويقدسه ويفكر في آلائه الحسنى وصفاته العلى فلا ينقطع ذكره ولا تفتر فكرته . وإذا احتاج إلى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد به جوعته وأقام على تلك الحال مدة وهو في أتم غبطة وأعظم أنس بمشاهدة ربه . وكان كل يوم يشاهد من آلائه ومرائي نعمه ويبصره عليه في مطعمه وغذائه ما تثبت يقينه وتقر عينه وكان في تلك المدة « حي بن يقظان » شديد الاستحقاق في مقتضى الكريمة فكان لا يخرج مغازلته إلا مرة في الأسبوع فيكون ما يصيح من الغداء فيذلك اليوم عنده أسال تأول وهلة من كل مطعوم فكان تلك الجزيرة ويسيح في أرجائها فلا يرى شيئا ولا يشاهد أثرا فيزيد بذلك أنسه وتنبسط نفسه لما كان قد غره عليه من التوهي في طلب العزلة والانفراد إلى أن تعلق في بعض تلك الأوقات أن خرج حي بن يقظان لالتماس غذائه وأنس قد أتم تلك الجهة فوقع بصر كل واحد منهما على الآخر .

فلما أنس حي بشخص أنه من جنس المستطيعين وصل إلى تلك الجزيرة بطلب العزلة عن الناس كما وصل هو إليها .

الخشي إن هو تعرض له وتعرف به أن تكون ذلك سبباً لفساد حاله وعائقاً بينه وبين أمله . وأما حي بن يقظان فلم يدر ما هو لأنه لم يره على صورة شيء من الحيوانات التي كان قد عاينها قبل ذلك وكان عليه مدرعة سوداء من شعر وصوف فظن أنها لباس طبيعي . فوقف يتعجب منه ملياً .

وولى أسال هارباً منه خيفة أن يشغله عن حاله فاقتفى حي بن يقظان أثره لما كان في طبعه من البحث عن حقائق الأشياء فلما رآه يشتد في الهرب حبس عنه وتوارى له حتى ظن أسال أنه قد انصرف عنه وبعد من تلك الجهة فشرع أسال في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع والتواجد حتى شغله ذلك عن كل شيء فحمل حي بن يقظان يتقرب منه قليلا وأسال لا يشعر به حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه ويشاهد خضوعه وبكاءه فسمع صوتاً حسناً وحروفاً منضدة . لم يعهد مثلها من شيء من أصناف الحيوان ونظر إلى أشكاله وتخطيطه فرآه على صورته ونبين له أن المدرعة التي عليه ليست جلداً طبيعياً وإنما هي لباس متخذ منه هو .

ورأى حبس خشوعه وتضرعه وبكاءه يشك في أنه من الذوات العارفة بالحق المشوق إليه ويريد أن يرى ما عنده وما الذي يوجب بكاءه وتضرعه فراد في الدنو منه حتى أحس به أسال فاشتد في العدو واشتد حي بن يقظان في أثره حتى لحقه به — لما كان أعطاه الله من القوة والسطة في علم والجسم — فاعترضه وقبض عليه ولم يمكنه من البراح .

فلما نظر إليه وهو مكسى بجلود الحيوانات ذوات الأوبار وشعره قد نبت حتى حبس كثير منه ورأى ما عنده من سرعة الخطو وقوة البطش فرق منه فرقا شديداً . وجعل يسحطه ويرغب إليه بكلام لا يفهمه ، حي بن يقظان ، ولا يدري ما هو غير أنه كان يتبين فيه شمائل الخير فكان يؤنسه بأصوات كان قد تعلمها من بعض الحيوانات ويمر يده على رأسه ويتمسح بأعطافه ويسبق إليه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن

حاش أسال وعلم أنه لا يريد به سوءاً وكان أسال قديماً لمحنته فى علم التأويل قد تعلم أكثر الآلسن ومهر فيه فجعل يكلم حى بن يقظان ويسأله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج إفهامه فلا يستطيع وحى بن يقظان فى ذلك كله يتعجب مما يسمع ولا يدرى ما هو عليه غير أنه يظهر له البشر والقبول .

فاستغرب كل واحد منهما أمر صاحبه .

وكان عند أسال بقية من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة فقربه إلى حى بن يقظان فلم يدر ما هو لأنه لم يكن شاهده قبل ذلك . فأكل منه أسال وأشار إليه بأكل فتكر حى بن يقظان فى كان عقد على نفسه من الشروط قد تداول العداء ولم يدر أصل ذلك الشىء الذى قدم له هو وهل يجوز له تناوله أم لا ، فامتنع عن الأكل . وما يزال أسال يرغب إليه ويستطعمه وقد كان أوهم حى أن عصى الخشب التى بيده على افتراسه فوحشه ذلك إليه ولم يأكل منه

فلما ذاقه واستطابه بدا له سوء ما صنع من نقض عهوده فى شرط العداء ، وندم على ما فعله وأراد الانفصال عن أسال والإقبال على شأنه من حينه فرجع إلى مقامه فكرهم فلم يأنس به مشاهدة سرعة . وقد كان فيما مضى من عمره حين حتى عقب على حقيقة شأنه ولا حتى فى نفسه هو فروع إليه وانصرف عند ذلك إلى مقامه دون أن يشعره بشىء ، فلما رأى صحبة أسال وما فى لسانه أيقن أنه لا يتكلم من عوائقه على ذهنه ورجا أن يعلمه الكلام والعلم ولعله يكون له بذلك عضداً فى دين الله . فشرع أسال فى تعليمه الكلام أولاً بأن كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق به معه بالإشارة ، حتى علمه الأسماء كلها ودرجه قليلاً قليلاً حتى تكلم فى أقرب مدة

فجعل أسال يسأله عن شأنه ومن أين صار إلى تلك الجزيرة فأخبره حى بن يقظان أنه لا يدرى نفسه ولا أباه ولا أمه أكثر من الصبية التى ربته ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول .

فما سمع أسال منه وصف ذات الخالق والذوات المفارقة لعالم الحس المعرفة بذات الحق عز وجل . ووصف له ذات الحق تعالى وجل بأوصافه الحسنى ووصف له ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من ذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك أيسال في جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره هي أشد هذه التي شاهدها حتى ابن يقظان فانفتح بصر قلبه واتضحت له خواطره وتطابق عنده معقول والمنقول وقربت عليه طرق التأويل ولم يبق عليه مشكل في الشرع إلا تبين له ولا معلق إلا انفتح ولا غامض إلا اتضح وصار من أولي الألباب . وعند ذلك نظر إلى حي بن يقظان بعين التعظيم والتوقير وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فلزم خدمته والاقتداء به والأخذ بشرائعه في تعرض عنده من الأعمال الشرعية التي كان قد تعلمها في ملته .

وجعل حي بن يقظان يستفصحه عن أموره وشأنه فجعل أسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من نعمه وكيف كانت سيرهم قبل وصول سلامان إليهم وكيف هي الآن بعد وصوله إليهم ووصف له جميع ما ورد في شريعته من وصف نعم الإلهي والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط . فجعل حي بن يقظان ذلك كله ولم يرفعه شكٌ على خلاف ما شاهده في معدنه الكريم . فعلم أن الذي وصف ذلك وجد به محق في وصفه ، صادق في قوله رسول عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته .

ثم جعل يسأله عما عنده منه من الفرائض ووصفه من العبادات ، فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبهها من الأعمال الظاهرة ، فسعى ذلك والتزمه وأخذ نفسه بمداومته امتثالا للأمر الذي صح عنده صدق واضعه . إلا أنه بقي في نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما .

أحدهما : لما ضرب هذا الرسول الأمثال للناس فى أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهى وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس فى أمر عظيم من التحسيم واعتقاد أشياء فى ذات الحق هو منزه عنها و برىء منها ؟ وكذلك فى أمر الثواب والعقاب .

والأمر الآخر : لما اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتصاد فى الأموال والتوسع فى المآكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالعلم والاعتراض عن الحق ؟

وكان رأيه هو أن لا يدون أحد شيئاً إلا ما يقيم به الرمق وأن الأموال لم تكن عنده معنى .

وكان يرى ما فى الشرع من الأحكام فى أمر الأموال كالزكاة والشفعة والبيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يضرب ذلك كله ويرده تعويلاً ويقول إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه الرسوم وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لأحد اختصاص بمال يمنع عن زكاته أو تقطع الأيدى على سرقته أو تذهب النفوس على أخذه بمحاربة .

وكان الذى أوقعه فى ذلك كله أن الناس كلهم ذوو فطرة تامة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ولم يكن يدرى ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأى وضعف العزم وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً

فما اشتد إشفاقه على الناس وطمعه أن يكون نجاتهم على يديه حدثت له نية فى الوصول إليهم و يوضح الحق لديهم وتبيينه لهم فنهض فى ذلك صحبة أياماً وسألهم . هل تمكنه حيلة فى الوصول إليهم ؟ فنصحه أصحابه عن ذلك وعرفوه من نقص الفطرة والإعراض عن أمر الله فلم يلتفت لهم فى ذلك وبقى فى نفسه تمنى ما كان قد أمله وطمع أن يسأل أن يهدى الله على يديه طائفة من معارفه ليتدين الناس كلهم أقرب إلى التخلص من سواهم فاعتزم على ركوبه ورأى أن يلتزم ساحل البحر ولا يعدوه ليلاً ولا نهاراً . لعل الله أن يسنى لهم عبور البحر .

فالتزم ذلك وابتهل إلى الله تعالى بالدعاء أن يهيئ لهم من أمرهم رشدا .

فكان من أمر الله عز وجل أن سفينة في البحر صدت مسكها ودفعها الرياح وتلاطم الأمواج إلى ساحلها فما قربت من البر رأى أهلها رجلين على الشاطئ . فدعوا منهم فكلمهم أبسال وسألهم أن يحملوهما معهم فحملوهما إلى ذلك وأدخلوهما السفينة وأرسل الله إليهم ريحا رخاء حملت السفينة في أقرب مدة إلى الجزيرة التي أملاها

فلما بلغ ودخلا مدينتهم وجميع أصحاب أبسال به فعرفهم شأن حي بن يقظان واشتملوا عليه اشتمالا شديدا وأكرموه وأجلوه وأعظموه وبجلوه وأعلموه أن أبسال أثبت الجماعة هما أقرب إلى الفهم والذكاء من جميع الناس وأنه إن عجز عن تفهيمهم فهو عن غيره أعجز .

وكان رأس تلك الجزيرة وكبيرها سلامان وهو صاحب أبسال الذي كان يرى ملازمة الجماعة ويقول سحر بهم العزلة فشرع حي بن يقظان في تعليم وبث أسرار الحكمة إليهم فما هو إلا أن ترقى عن الظاهر قليلا وأخذ في وصف ما سبق إلى فهمهم خلافه فجعلوا ينقضون عنه وتشمئز نفوسهم مما رأى به وتستحقره في فهمه وإن ظهروا له الرضا في وجهه إكراما لمن بعثه إليهم ، ومراعاة لحق صاحبهم أبسال

فلما رأى حي بن يقظان تنفيرهم منه ملأ وبهم ويئس لهم الحق سرا وجهارا فلا يرد عليه إلا بما وافق ما هم عليه كانوا يحبون التحير راضين في الحق إلا أنهم بنفس فطرتهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه حيث تحصيله ولا يتمسكون من بابه بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق نزوله فيئس من إصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم .

وتصفح حينئذ الناس بعد ذلك فرأى كل حزب بما لديهم فرحون قد اتخذوا إلههم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا في جمع حطام الدنيا وأهلها تكاثرا حتى

زاروا المقابر لا تنجع فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يرادون بالجدل إلا إصراراً وأما الحكمة فلا سبيل لهم إليها ولا حظ لهم منها قد عمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ( ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ) .

فما رأى سيدنا أن الداء قد أحاط بهم وطمت الجفوة قد تغشتهم والكل منهم إلا اليسير لا يسكون من ملتهم إلا بالدين وقد بدو أعمالهم على حقيقتها وسهولتها وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً وألهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ولم يخافوا يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ولم يه وتحقق على قطع أن محاصيهم بطريق المكاشفة لا تمكن وأن تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بشريعته إنما هو في حياتهم الدنيا بستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سوء في حقهم هو به وأنه لا فوز منه بالسعادة الأخروية إلا الشاذ النادر وهو من أراد حرث الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن .

وأما من عمي وآثر الحياة الدنيا فهو الخاسر حقاً وأي نصب أعظم وشقاوة ممن إذا تصفحت أعماله من وقت انتباهه من نومه إلى حين رجوعه إلى السكرى لا تجد منها شيئاً إلا وهو يلتمس به تحصيل لذة من هذه الأمور المحسوسة الخسيسة إما مأكل يجمعه أو لذة يسعى أو شهوة يقضيها أو عيب يشفي به أو جاه يحرزه أو عمل من أعمال الشر يجريه أو مدافع عن رذيلة وهي كلها مناصب تعصبها فوق نعيم في نحر حي ( وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ) فقد فهم أحوال الناس وأن أكثرهم عميت الحوال عن الحق عن أن الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة لا يمكن غير ذلك ولا يحصل المراد عنه فكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له ( سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ) فانصرف إلى سلامان وأخبره فاعتذر عن تكلم به معهم وتبرأ إليهم منه وأعلمهم أنه

قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم ووصمه ملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الطاهرة وقلة الخوض في الاعتقادات والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها والإعراض عن البدع والأهواء والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور وأمرهم بمحاسنة ما عليه جمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على اللذات وحذرهم عنه غاية التحذير وعلم هو وصاحبه أنه لن هذه الطائفة المريدة القاصدة لا نجاة له إلا بهذا الطريق وأنه إن رفعت عنه إلى نفسه لا يستطيع احتمال ما هي عليه ولا يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء وتتقدمت واستكبرت وعظمت عاقبتها . وإن هي دامت على ما هي عليه حتى يواقيها البقين فرب ما الأمن وكانت من أصحاب اليمين وأما السابقون السابقون فأولئك هم المقربون فودعهم وانفصلا عنهم وتلطفا في العود إلى حريرتهم حتى يسر الله عز وجل عليهما العود إليهم وطلب حتى من فضل مقامه الكريم بالمحو الذي طلبه ولا حتى عاد إليه واقتدى به أسأل الله أن قرب منه أو كاد وعبدا الله بتلك الخلوة حتى أتاه اليقين

. . .

هذا ما أبدى الله وأبان روحه عنه مما كان من أحوال يقضي وأحوال وسلامات وقد اشتمل على علم من الكلام لا يوجد في كتاب ولا يسمع في معتقد خطاب وهو من العلم المكنون الذي لا يفشيه إلا أهل المعرفة بالله ولا يجهد إلا أهل العزة بالله وقد خالف فيه طريق السلف الصالح في الصيانة به والتمنع عليه إلا أن الذي سهل عليه إفشاء هذا السر وهتك الحجاب عما ظهر في زماننا من آراء مفسدة سعت بها متفسحة العصر وصرحت بها حتى انتشرت في البلدان وعم ضررها وخشي على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الأنبياء صلوات الله عليهم وأرادوا تقليد السفهاء والأغبياء أن يظنوا أن تلك الآراء هي المصون بها على غير أهلها فيزيد بذلك جهلهم فيها وولوعهم بها . فرأينا أن نمنع إليهم بطرف من سر الأسرار لنحدسهم إلى جانب التحقيق ثم نصدهم عن ذلك الطريق ولا نحل مع ذلك ما أودعناه هذه الأوراق اليسيرة من

الأسرار عن حجاب رقيق وستر عتيق تنهتك سريعاً من هو أهله ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى لا يتعداه وأنا أسأل إخواني الواقفين على هذا الكلام أن يقبلوا عذري فيما تسامحت في تسميه وسامحت في تثبيته فلم أهمل ذلك إلا لأني تسمت شواهق يزل الطرف عن مرقاها وأردت تقريب الكلام فيها على وجه الترغيب والتشويق في دخول الطريق . وأسأل الله الغفور والعفو وأن يوردنا من المعرفة به الصفو إنه منعم كريم والسلام عليك أيها الأخ المفترض بسعاده ورحمة الله وبركاته .

# حی بن یقظان

للسهروردی

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وعترته الطاهرين — أما بعد فإني لما رأيت قصة حي بن يقظان وتصديقها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانية والإشارات العميقة معتريه[1] من تلويحات تشير إلى الطور الأعظم، الذي هو الطامة الكبرى المخزون في الكتب الإلهية مسطور في الزبور نحى في قصة حي بن يقظان فهو الذي يقترب عليه مقدمات الصوفية وأصحاب المكاشفات وما أشير في رسالة حي بن يقظان إلا في آخر الكتابة حيث قال «ولقد هاجر إليه أفراد من الناس» إلى آخر الكتاب فأردت أن أذكر طوراً في قصة سميها أن قصة العربية العربية لبعض إخواني الكرام وعليه أتوكل وبه أستعين.

سافرت مع أخي عاصم من ديار ما وراء النهر لتصيد طائفة من طيور ساحل بحة الحصراء فوقعنا بغتة في قرية تسمى أهنبه أعني مدينة قيروان فلما أحس قومها أننا قاصدنا عليهم ونحن من أولاد الشيخ المشهور مهدي بن أبي أخير اليماني أحاطوا بنا وأخذونا وقيدونا بسلاسل وأغلال من حديد وحبسونا في مقعر بئر لا نهاية لعمقها وكان فوق البئر مظلة التي عمرت لمحبوس قصر مشيد عليه أبراج عالية فقيل لنا لا جناح عليكم إن صعدتم القصر محررين إذا أمسيتم أما عند الصباح فلا بد من الهوى في عيابات الجب وكان في قعر البئر ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها إلا أنا أوبة المساء ترقى القصر مشرفين على الفضاء ناظرين من كوة فرأينا أسراب حمامات من أنواع الطير محررات تحلق نحونا وأحيانا تزورنا فرق بداية تومض من الجانب الأيمن الشرقي وتجيء طوراً فوق تحدث تزيد وتتسع وحدة على وحدة فتحن إلى الوطن وتشتاق فمنها تحن في الصعود ليلاً والهبوط نهاراً إذ رأينا الهدهد[2]

(١) يقصد عارية (٢) يريد بالهدهد الوحي والإلهام . وبأبيكم ثقة الدالي

مسعداً في بسلة قراءة في منقوره كتاب صدر من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة وفيه أن أحط بوجه خاصكما وحشكما من سيء سيء بقين وهو دا مشروح في قعة أسكما وقد قرأت الرقعة فإذا فيها مكتوب إليه من الهادي إليكم وبه سم الله الرحمن الرحيم كم شوق كم تشاقوا ودعوتكما فلم ترحلوا وشرحتكم فلم تفهموا وأشرت في الرقعة إلى ذلك فقال إن أردت أن تتخلص مع أخيك فلا بد في عزم السفر واعتصم بحبل وهو جوهر الميثاق المقدسي المستوى على واحي الكشوف فإذا أنت به وفي أمس فتخلص ذلك وفي حدته الذي أخبرت عنه ما أمامك وبه النشور وأهلك[1] أهلك وقبل امرأتك إن كانت من الغابرين ومض حيث تؤمر فإن دار هؤلاء منقلوبة مصبحين فركب في السفينة التي سمى الله مجريها ومرسيها في الرقعة جميع ما هو كائن في الطريق فتعجبنا وصرت الشمس فوق رؤوسنا إذا وصلنا طرف الجبل وركبنا في السفينة وهي تجري بنا في موج كالجبال ونحن نروم الصعود على صورتها حتى ترفق صومعة أيوب وحال بيني وبين الذي الموج فكان من المغرقين وعرفت أن قومي موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب وعمدت إلى الدابة التي كانت تحمل الخبائث فجعل عاليها سافلها وتطر عليها حجارة من سجيل منضود فيه وصلت إلى موضع تلاطم فيه الأمواج وتسرج فيه الماء أخذت عصاي التي أرعى بها غنمي في أيام وكنت أسير في جانبه ذات اليمين وذات الشمال وغرقنا السفينة بمحافة ملك يأخذ كل سفينة غصباً وهيئت مشحونة قد مر بها على مدينة ومأجوج ومأجوج على الجانب الأيسر من جودي كل ماء من الجبل من يعمل بين يدي وفي عين القطر فعلت للجبل افعلوا حتى صار مثل السد لجمته سداً حتى سمعت منهم وحفي وعدي حتى خرجت في الطريق جماعة عاد وثمود وجعلت في تلك السير وهي جارية على عروشها وأخذت الشيخين مع الأفلاك وجعلتها مع الجبل في

---

[1] شهوانيه ، ويعتقد المحقق من سياق

قارورة صنعتها أنا مستديرة عليها خطوط كأنها دوائر تقطعت إلا أنها من كبد السماء فلما انقطع الماء عن الرحا انهدم البنا وخلص الهواء إلى الهواء وألقيت الأفلاك على السموات حتى طحن الشمس والقمر والكواكب فتخلصت من أربعة عشر تابوتاً فألقيت سبيل الله فتيقظت إن هذا صراطي على مستقيماً وأختي قد أخذتها بياتاً فباتت في قطع من الليل مظلم وبهاجن وكابوس يتطرق إلى صرع شديد ورأيت سراجاً فيها دهن ينتسج نوره وينتشر في أقطار البيت وشعل مساكنها من إشراقها نور الشمس عليهم فجعله في فم تنين ساكن في برج دولاب تحته بحر قارم وفوقه كواكب ما عرف مطلع أشعتها إلا باريها والراسخون في العلم ورأيت الأسد والثور قد غابا والقوس والسرطان قد طويا في طي تدور الفلك وبقي الميزان مسبوقاً فإذا طلع النجم اليماني من وراء غيوم رقيقة متألقة مما نسجته عناكب زوايا العالم الصغرى عالم الكون والفساد وكان معنا عم فتركناها في الصحراء فأهلكتهم في الزلازل ووقعت فيها نار صاعقة فلما انقطعت المسافة وانقرض الطريق وفار التنور من الشكل المخروط فرأيت الأجرام العلوية واتصلت بها سمعت نغماتها ودستاتيتها وتعلمت منها أشياء وأصواتها تقرع مسمعي كأنها صوت سلسلة تجر على صخرة صماء وتكاد تنقطع أدباري وتنصرم مفاصلي من لذة ما أسمع ولا يزال الأمر يتطور على حتى تقشع الغمام وتمزقت المشيمة وخرجت من المغارات والحوت قد انقض من الخيرات متوجهاً إلى عين الحياة فرأيت الصخرة العظيمة على قلة الطور العظيم فسألت عن الحيتان المجتمعة وعن الحيوانات المتنعمة المتلذذة بظل الشاهق العظيم إن هذا الطور ما هو وما هذه الصخرة العظيمة فاتخذ واحد من الحيتان سبيله في البحر سرباً وقال ذلك ما كنا نبغي وهذا الجبل طور سينا والصخرة صومعة أبيك فقلت وما هؤلاء الحيتان فقالوا أشباهك أنتم من أب واحد وقد وقع لهم شبه واقعتك فهم أخوانك فلما سمعت وحققت عاقتهم وفرحت بهم وفرحوا بي فصعدنا إلى الجبل ورأيت أبانا شيخاً كبيراً يكاد السموات والأرضون تنشق من تجلي نوره فبقيت تائهاً متحيراً منه ومشيت إليه فسلم علي فسجدت له ولذت أتمحق في نوره الساطع

فبكيت زماناً وشكوت إليه من حبس قيروان فقال لى نعم تخلصت إلا أنك لا بد راجع إلى السجن الغربى وأن القيد ما خلفته تماماً فلما سمعت طار عقلى وتأوهت صارخاً صراخ المشرف على الهلاك فتضرعت إليه فقال أما العود لك فضرورى الآن ولكنى أبشرك بشيئين أحدهما أنك إذا رجعت إلى الحبس يمكنك المجىء إلينا والصعود إلى جبتنا هين متى شئت والثانى أنك متخلص من الآخر إلى جنابنا تاركاً للبلاد الغربية بأسرها مطلقاً ففرحت بما قال أعلم أن هذا جبل طورسينا وفوق هذا جبل طورسينا مسكن والدى وجدك وما أنا بالإضافة إليه إلا مثلك بالإضافة إلى ولنا أجداد آخرون حتى ينتهى النسب العظيم إلى الذى هذا الجد الأعظم الذى لاجد له ولا أم وكلنا عبيده وبه نستعين ومنه نقتبس وله البهاء الأعظم والجلال الأرفع وهو فوق الفوق ونور النور وهو المتجلى لكل شىء بكل شىء وكل شىء هالك إلا وجهه فأنا فى هذه القصة إذ تغير على الحال وسقطت من الهوى إلى الهاوية بين قوم ليسوا بمؤمنين محبوساً فى ديار المغرب وبقى معى من اللذة مالا أطيق أن أشرحه فانتحبت وابتهلت وتحسرت على المفارقة وتلك الراحة كانت أحلاماً زايلة على سرعة نجانا الله تعالى من قيد الهيولى والطبيعة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعترته الطاهرين وهذه القصة تسمى الغربة الغربية .

مكتبة
لسان العرب
رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

٢٣٨٣/١٩٥٧